

دكتور علي سامي النشار

١٩٨٣م ١٤٠٣هـ

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تلك صفحات من تاريخ شهداء الإسلام دفعنى إلى كتابتها أنها لم تحظ بعناية الباحثين فى التاريخ الإسلامى ، فبقيت مجهولة إلى أكبر حد لدى الكثيرين من المسلمين .

بل إن المسلمين ليعرفون عن شهداء المسيحية أكثر مما يعرفون عن شهدائهم العظماء الذين شادوا بدمائهم الأمة الإسلامية ورفعوا على أجسادهم قوائمها ، ولعل السبب فى هذا راجع إلى قيام كثير من مؤرخى المسيحيين وشعرائهم بالكتابة عن ضحاياهم والتغنى بأمجادهم والسمو بهم إلى مرتبة القديسين الأبرار . فألفت الكتب الكثيرة وأفردت المصنفات المتعددة عنهم فى اللغات الأجنبية على اختلافها ، بينما أهمل المسلمون تاريخ شهداء الإسلام كما قلت إهمالا تاماً .

وقد رأيت أن أقوم بمحاولة فى كتابة تاريخ لهؤلاء الشهداء فقمت بجمع أخبارهم من شتات كتب « السير » و « المغازى » و « طبقات الرجال » وكتب التاريخ ولم آل جهداً فى الاطلاع على تلك الكتب المختلفة مطبوعة كانت أو مخطوطة ووجهت همى إلى العصر الأول ، عهد صدر الإسلام عهد الأمجاد العظيمة ، والإيثار الإنسانى المطلق ، وأخذت أجمع مادتى من هنا وهناك ، وكنت أجد المادة كثيرة لدى بعض الشهداء آناً ولا أعثر إلا على شذرات مقتضبة لدى شهداء آخرين آناً آخر حتى تجمع لى أخبار عدد غير قليل من شهداء العصر الأول ، فقدمتها للقارىء فى صورة أدبية أخاذة ، غير أن هذا التصوير الأدبى لم يدعنى فى جانب والحقيقة التاريخية فى جانب آخر ، بل كانت تلك الحقيقة نصب عينى دائماً . فلم أزد أخباراً ولم أبتدع بل قدمت صورة صادقة كاملة لهؤلاء الشهداء .

وقد حاولت مراراً أن ألتزم قاعدة زمنية فى عرض تاريخ الشهداء وإن كان هذا المنهج لم يسعفنى فى بعض الأحيان . . . ومن الأمثلة على هذا . . الصفحة الأولى . . آل ياسر فقد كان « ياسر » و « سمية » أول شهداء الإسلام بينما كان « عمار » من شهداء صفين ومع ذلك جمعتُ بينهم فى العرض لأنهم أبناء أسرة واحدة . . . وآل نسيبة « بنت كعب » فقد استشهد أحد ولديها على يد مسيلمة واستشهد الآخر بعد ذلك فى واقعة الحرة ، ومع ذلك فقد جمعت بينهما ، فلم يكن من التوفيق أن أفصل بين الرجل وأبويه أو بين الرجل وأخيه وحياتهم جميعاً وحدة كاملة متصلة كل الاتصال وكنت أحياناً أخرى أجمع بين الأصدقاء الذين عاشوا متآخين وماتوا متآخين .

وفى اختصار إن الكتاب وحدة تاريخية متصلة بقدر ما هو كتاب أدبى يحلل تحليلا أدبياً حياة هؤلاء الأقوام .

ولست أدعى إطلاقاً أننى حصرت شهداء العصر الأول كلهم أو أننى حصرت معظمهم بل إننى قدمت ما يمكن لحيز هذه الصفحات أن يحويه وأخرت الآخرين لكتاب أؤمل فى إصداره قريباً ، ثم إننى أهملت أسماء كثيرة من الشهداء لعدم تركهم أى آثار أستطيع أن أعرض حياتهم فى ضوئها ، وإننى لأحيي تلك الأسماء الماجدة ، وأحيي أيضاً آخرين ذهبوا ولم يستطع التاريخ أن يحويهم بين صفحاته وأن يسجل أسماءهم للأخلاف الباقية وهم فى سجل الله خالدون .

وإنى لأرجو أن أكون قد أديت فائدة جليلة للتاريخ الإسلامى الأدبى وعرضت صحائف خالدة من مجد وعلو وإيثار .

آل ياسر

« أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »

. . . وارسلت الشمس أشعتها الأخيرة على الصحراء الممتدة ، وهبت الرياح ندية رقيقة ، وحادى القافلة ينشد أناشيده الصحراوية فى هذا السكون العميق — وسارت النوق فى منعرجات دقيقة وأودية يكسوها أحياناً نوع من الشوك والعوسج ، وأحياناً تبدو جرداء قاحلة — وسارت القافلة ردحاً من الليل حتى إذا ما أحس كثير من رجالها بالتعب استقروا فى واد من الأودية المنتشرة وأخذ السحّار يسحرون وأخذ أصحاب تجارة هذه القافلة يفكرون فيما سيبيعونه غداً فى البيت العتيق من أشراف قريش وتجارها ، وما سيعودون به من ربح طائل من سدنة الكعبة المعظمة ، وفوق ذلك ما سيتمتعون به من ترف ونعيم ولهو فى حياة كلها لهو وفسق .. وانتحى القومَ أفراد ثلاثة لم يكن يشغلهم ما يشغل القوم من حديث ، ولم يكونوا يؤملون ما يؤمل بقية رفقائهم فى رحلتهم الطويلة ، وإنما خرج ياسر بن عامر وأخواه الحرث ومالك من اليمن لا لمال ولا لمتاع إنما للبحث عن أخ مفقود خرج من قبيلته فى اليمن ثم انقطعت عنهم أخباره وكانوا يأملون أملاً قوياً أنهم سيجدونه فى مكة وهى ملتقى العرب جميعاً .

وهدأت الحركة قليلاً ، إذ غفا كثير من المسافرين ؛ فلما أشرقت الشمس تنادى القوم ، وهب النائمون من رقادهم ، وسارت القافلة مرة أخرى فى جد واهتمام طيلة اليوم فإنه لم يعد بينها و بين مكة سوى ساعات قليلة . . .

***

. . . وأشرفت القافلة على بيت إبراهيم ، وتصايح الرجال ، واختلطت أصواتهم وخرجت قريش لاستقبال القافلة ، فقد كان فيها شيء كثير من تجارتهم وعدد كبير من رجالهم وأبنائهم ، وانتشر اليمنيون بين القرشيين ، يبيعونهم و يبتاعون منهم ،

ويشاركونهم فى حياتهم المتحللة الفاجرة . أما ياسر وأخواه فقد شغله عن كل هذا ما أتوا لأجله ، فبحثوا كثيرا وتنقلوا بين أحياء مكة ومساكنها ، وبين أسواقها وبواديها ، حتى إذا ما أعجزهم البحث وآن للقافلة العودة إلى بلدها أسرع الإخوة إليها ، فقد هاجهم الحنين إلى بلدهم الخصب ، ولكن ياسراً استهوته حياة مكة فعزم على الاستقرار بها — فلما حان للقافلة أن تؤوب لم يكن ياسر بين رجالها ، فلقد ودع أخويه مصراً على الحياة فى مكة وفى جوار بيتها ، ولكن لم يكن لياسر قبيلة تدافع عنه وتُؤويه ، وتمنع عنه مظالم الطغاة من رجال القبائل ، وكانت الحياة فى الجزيرة العربية يسيطر عليها القانون الوحشى « الحياة للأقوى » فلم يكن للضعيف سوى الاستعباد والذل ، فلجأ إلى سراة بنى مخزوم محالفا أبا حذيفة بن المغيرة ، ليدفع عنه عادية البطون الأخرى من قريش — وقد زوَّجه أبو حذيفة أمة له هى سمية بنت خياط فولدت له عماراً وعبد الله ، وسارت بهم الحياة فى كنف بنى مخزوم رقيقة لا جدب فيها ولا عسر ، وتقدم ياسر فى العمر كما اكتملت رجولة عمار .

* * *

. . . وأشرق الضوء الجديد على مكة ، لقد بعث الله نبيه محمد بن عبد الله إلى العالمين ، فما آمن به من قومه إلا بضعة وثلاثون رجلا أذاقتهم قريش ألوان الألم والعذاب — وفكّر عمَّار بن ياسر فيمن فكّرَ من أهل مكة فيما يدعو محمد صلوات الله عليه ، وفيما ينذر به قومه . . . ما هى هذه الحياة الدنيا ، وماهى غايتها ؟ ما هى هذه الدعوة التى يراد بها خلق مجتمع جديد ؟ إنه لن يستطيع أن يتحدث عن الرسالة سوى صاحب الرسالة ، وبدت دار الأرقم من بعد أمام عمار بن ياسر ؛ وهو مسرع الخطا إليها ، ساكنة الجوانب . ويتلفت عمار بن ياسر يمنة ويسرة فإنه شعر تماما بما لقريش من رقباء حول هذه الدار ينقلون إليها كل ما يدور فيها وليس لعمار بن ياسر من قوم ولا من منعة ، لكن ما لعمار بن ياسر وهذا الضعف ، فتقدم نحو الدار ، وهنا وجد نفسه أمام رجل آخر . . . هو صهيب بن سنان الرومى ، أحد الغرباء فى قريش .

— ماذا تريد ياصهيب ؟ !

— ماتريد أنت ياعمّار ؟ !

— أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .

— وأنا أريد ذلك .

ودخل الاثنان ، فعرض عليهما النبيّ صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلما ، ثم مكثا يومهما على ذلك حتى أمسيا ، ثم خرجا يستخفيان .

وعرض عمّار الإسلام على أبيه وأمه فأسلما ، وعلمت بنو مخزوم بذلك ، فلم ينكر عمّار ولا أهله ، بل أعلنوا ذلك فى قوّة لم ير الكافرون فيها إلا عناداً وتحدياً .

وانقض بنو مخزوم على آل ياسر يذيقونهم أشد العذاب ليفتنوهم عن دينهم .

وفى بطحاء مكة حيث ترسل الشمس شواظاً من لهب قضى آل ياسر أياماً فى عذاب مقيم ، ومرّ محمد صلى الله عليه وسلم عليهم وهم يعذبون ، وسمع ياسراً يئنّ فى قيوده وهو يقول : « الدهر هكذا » فنظر الرسول الأعظم إلى السماء ونادى : « أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

وسمعها آل ياسر فهدأت نفوسهم وسكنت ، فلما أتاهم « أبو جهل » كان علوهم على الحياة أعظم ما رأى الناس ، وقضى ياسر فى العذاب وانقض أبو جهل عَلَى سمية فقتلها . . .

لقد استشهد ياسر وسمية ولم يعد من آل ياسر إلا عمار ، وقد قاسى عمار من العذاب أقساه ، أخذوا يغطونه فى الماء حتى بلغ به الجهد مبلغه ولم يتركوه حتى نال من رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له :

— ما وراءك ؟

— شراً يا رسول الله والله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير .

— فكيف تجد قلبك ؟

— مطمئن بالإيمان .

— فإن عادوا فعد .

وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة ، وهاجر عمار فيمن هاجر إلى يثرب حتى إذا ما هاجر محمد صلوات الله عليه وبدأ يبنى مسجده فى مربد بنى عمرو ودعا المهاجرين والأنصار إلى العمل فيه ، داروا جميعاً فيه وفى مقدمتهم عمار بن ياسر ونادى منادى المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنون :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان على بن أبى طالب وعمار بن ياسر يرتجزان :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا

من يرى عن الغبار حائدا

ودخل عمّار بن ياسر على النبى صلى الله عليه وسلم وقد أثقلوه باللبِن فقال : « رسول الله — قتلونى — يحملون علىّ ما لا يحملون » فنفض النبى صلى الله عليه وسلم لبنَته وقال: ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار .

وعاش عمار مع النبى صلى الله عليه وسلم لا يفارقه قط ، فشهد المشاهد كلها وعرف النبى له قدره فأحبه ، وكثيراً ما قال لصحابته : إنى لا أدرى ما بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى وأشار إلى أبى بكر وعمر ، وتمسكوا بعهد عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه . وفى رواية أخرى: « إنى لست أدرى ما قدر بقائى فيكم فاقتدوا بالذين من بعدى ، يشير إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، واهدوا هدى عمار وعهد ابن أم عبيد رضى الله عنهما » .

وقضى النبى صلى الله عليه وسلم فبكاه عمار أشد البكاء ، وارتدت العرب واختلفت على المسلمين ، غير أن أبا بكر لم يأخذه من الأمر ضعف ولا تردد ،

بل بعث إلى المرتدين جيوش المؤمنين وكان فى مقدمتهم عمار بن ياسر ؛ وفى يوم اليمامة حيث أصاب المسلمين أول الأمر شدة ، أشرف عمار على صخرة وهو يصيح : « يا معشر المسلمين — من الجنة تفرُّون أنا عمار بن ياسر هلموا إلىّ » . وكانت أذنه قد قطعت وهى تذبذب وهو يقاتل أشد القتال ، وانتصر المسلمون أخيراً .

وتنقل عمار بن ياسر من ميدان إلى ميدان وشهد القادسية وغيرها حتى ولاه عمر الكوفة وأرسل إلى أهلها يقول : « إنى بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً وإنهما لمن النجباء أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لهما وأطيعوا » ثم عزله عن الكوفة وسأله :

— أساءك عزلنا إياك ؟ . فقال :

— لئن قلت ذاك لقد ساءتنى الولاية بقدر ما ساءنى العزل .

وقامت الفتنة العمياء بين علىّ ومعاوية فانضوى عمار تحت لواء علىّ وفى صفين التحم الجيشان ، وكان عمار شيخاً آدم فى يده الحربة وإنها لترعد ، فنظر إلى عمرو ابن العاص وقال : « الجنة تحت البارقة الظمآن قد يرد الماء المأمور وذا اليوم ألتى الأحبة محمداً وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات حجر لعلمت أنا على حق وأنهم على باطل ، لقد قاتلت بهذه الراية ثلاث مرات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما هذه المرة بأبرّهن ولا أنقاهن » . والتحم الجيشان ومضى عمار على رأس كتيبة لا يأخذ فى ناحية أو واد إلا وأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يتبعونه . ثم برز إليه رجل فقتله عمار ثم رجل آخر فقتله ، وحينذاك غافله أبو العارية المزنى ورماه بسهم فقتله ثم احتزّ رجل آخر رأسه وأقبلا يختصمان فيه كلاهما يقول إنه قتله فقال عمرو بن العاص : « والله إن يختصمان إلا فى النار لوددت أنى مت قبل هذا بعشرين سنة » .

ونادى المنادى : « ويحك ابن سمية تقتلك الفئة الباغية » . ووقف على جسده يقول : « إن امرءا من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخل به عليه المصيبة

الموجعة لغير رشيد ، رحم الله عماراً يوم أسلم ورحم الله عماراً يوم قتل ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً ، لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة إلا كان خامساً ، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة فى غير موطن ولا فى اثنين ، فهنيئاً لعمار بالجنة — إن عماراً مع الحق والحق معه يدور — عمار مع الحق أينما دار — وقاتل عمار فى النار » .

* * *

« مات عمار بن ياسر شهيداً كما مات أبواه من قبل شهيدين » . سمع أهل مكة هذا فتردد فى آذانهم :

« أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . .

شهـــداء بدر

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى ســبيل الله أمواتاً
بل أحياء عنـد ربهم يرزقون . . . »

. . . ونفرت قريش إلى الحرب حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يعرض لعيرها ، وسارت تلك القوة فى خيلاء نحو مياه بدر ، وعلم الرسول الأعظم عند وادى زفران أن قريشاً سارت لتمنع عيرها ؛ قريش خرجت كلها لملاقاته . فأخبر أصحابه واستشارهم أولاً فقام أبو بكر وعاهد الله على الوفاء ، كما قام عمر بن الخطاب ثم قام المقداد بن عمرو فقال: « يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ٥/٢٤ — ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . . »

ثم استشار الأنصار فأعطاه سعد بن معاذ سيد الأنصار العهود على السمع والطاعة والموت فى سبيله ؛ فآمن رسـول الله أن نصر الله قريب وسار حتى وقف على ماء بدر . . . وهناك علموا أن قافلة أبى سفيان قد فاتتهم وأنه ليس أمامهم إلا عدو يبلغ ثلاثة أضعاف عددهم . وبدأت المناوشات الأولى فخرج من قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعوذ بنا الحرث — وأمهما عفراء — وعبد الله بن رواحة .

فصاح عتبة : « من أنتم؟ » فقالوا: رهط من الأنصار ، قالوا : مالنا بكم من حاجة ثم نادوا يامحمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم ياعبيدة بن الحرث ، قم ياحمزة ، قم ياعلى . . » قال عتبة « من أنتم » فذكر

كل منهم اسمه قالوا أكفاء كرام — فبارز عبيدة، وكان أسن القوم، ربيعة، وبارز حمزة — شيبة بن ربيعة — وبارز على، الوليد بن ربيعة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله وأصاب عتبة عبيدة فى قدمه فكر عليه حمزة وعلى فقتلاه بسيوفهما واحتملا عبيدة إلى صفوف المسلمين.

ونام عبيدة تحت أقدام الرسول وقال: ألست شهيداً يارسول الله — فقال الرسول: بلى. مات عبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف، وهو صاحب أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام لأحد من المسلمين — مات أحد السابقين الأولين من المهاجرين.

***

واقترب المشركون من المسلمين ورسول الله يعدل أصحابه وفى يده قدح فمر بسواد بن غزية وهو غير منتظم فى الصف فطعنه فى بطنه بالقدح وقال:

— استو ياسواد.. فقال:

— يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى.

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال «استقد» فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال الرسول الأعظم:

— ما حملك على هذا يا سواد؟..

— يا رسول الله حضر ماترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك.

وبدأت الحرب، ثم دخل الرسول الأعظم يناجى ربه ثم خفق خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال: أبشر ياأبا بكر أتاك نصر الله — هذا جبريل آخذاً بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع...

وفى تلك اللحظة رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول من قتل من المسلمين — ثم رمى حارثة بن سراقة وهو يشرب من الحوض بسهم

فأصاب نحره فقتل . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتَل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة — فقال عمير بن الحمام وفى يده تمرات يأكلها :

— بخ بخ ، أفما بينى و بين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف الثمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وأقبل عوف بن الحرث — ابن عفراء قال :

— يارسول الله ما يضحك العبد من ربه ؟ .

— غمسه يده فى العدو حاسراً .

فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

* * *

وسأل معوذ أخاه أحد المهاجرين : أين أبو جهل لقد كان يؤذى رسول الله فى مكة كثيراً ، أريد أن أراه . فلما أشار إليه أحد المهاجرين هجم معوذ عليه وضربه حتى بَرَدَ فتركه وبه رمق . . ثم انقض على القرشيين حتى قتل .

* * *

وقتل عمير بن أبى وقاص وهو فى السادسة عشرة دفاعا عن دينه ، وقتل ذوالشمالين بن عبدعمرو ، وعاقل بن البكير وصفوان بن بيضاء ومبشر بن عبد المنذر ويزيد بن الحرث ورافع بن المعلى .

* * *

وفى بدر . . . ناموا جميعاً أحياء غير أموات . .

ســــيد الشهداء

حمزة بن عبد المطلب

جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب من أهل السموات السبع « أسد الله وأسد رسوله » .

١ — إيمان الأسد :

إن الشمس لتشرق كل يوم على مكة والأيام تدور فيها و ينتابها الغير و يحدث فيها ما يحدث . . وحمزة بن عبد المطلب فى عالم بعيد كل البعد عن عالم مشاغلها وأزماتها ، إنه ليحيا لنفسه ولنفسه فقط . لذائذ الحياة يقبل إليها — مال وجاه وقوة وسطوة ، فالحياة إذن نعيم دنيوى يأخذ منه بأكبر نصيبه . ما شغله هذا الكون ومن فيه وما أبه يوماً لشيء من الأشياء يحدث بين قومه حتى هذا الحديث الهائل الذى تذكره قريش اليوم وقد شغلها عن كل شيء ؛ حديث ابن أخيه محمد ابن عبد الله وهو يلقى إليهم شيئاً ما عرفوه من قبل وما سمعوا به . إنه الصوت الإلهى الذى يدعوهم من عل فيندفق فى قلوبهم نوراً وضياء . . إنه ليسمعه وليسمعه قوياً يشعل فى نفسه شعلات غامضات لا يعرف لها كنها . . ولكن الحياة بلذائذها تطغى عليه — فيأخذ منها ولا ينظر بعد إلى هذا الصوت الداخلى . لقد دعاه أبو طالب سيد قريش إلى منعة ابن أخيه فاستجاب — ولكن لم يكن استجاب بعد لما دعي محمد قومه إليه .

وإن رسول الله ليتحمل الإعنات والإرهاق و يصبر عليهما صبراً ينفذ نفاذاً هائلا فى قلب حمزة فيثير فى نفسه الدهشة والإعجاب ، ثم ينقلب هذا الإعجاب إلى حب هائل غير أن هذا كله لم يلهه عن دنياه التى يمرح فيها .

عاد يوماً حمزة بن عبد المطلب من قنصه متوشحاً قوسه وكان إذا رجع لم يصل الى أهله حتى يطوف بالكعبة متحدثاً متندراً مع حلقاتها . وهناك اقتربت

منه مولاة لعبد الله بن جدعان وقالت : واذلاه يا بنى عبد مناف ، يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم بن هشام . وجده ههنا جالساً فآذاه وسبه و بلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم .

وهنا ازداد الغضب بحمزة . . ماذا فعل محمد حتى يلقى كل هذا ؟.. أو ليس يدعوهم إلى خير ما فى هذه الحياة وما بعدها — ما لهم ينالون منه أشد النيل إلا أن هذا الأمر لحق — فخرج يسعى لم يقف على أحد معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به — فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه ورفع القوس فضرب به بها فشجه شجة منكرة ثم صاح فيه : « أتشتمه ! ! فأنا على دينه أقول ما يقول فرد ذلك على إن استطعت » .

فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل . وهنا يقف حمزة وقفة الضرغام الأبى مستعداً للقتال . . ألا إنه أعز فتى فى قريش قوة وشكيمة — وصاحوا فيه جميعا :

— ما نراك يا حمزة إلا قد صبوت .

— ومن يمنعنى وقد استبان لى منه ما أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الذى يقول حق — فوالله لا أنزع فامنعونى إن كنتم صادقين .

فوقف أبو جهل وقال :

— دعوا أبا عمارة فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحا . . .

ثم رجع حمزة إلى بيته . . ولكن ماله يفكر ويفكر تفكيراً عميقاً يشغل عليه نفسه ، و يمر الليل عليه ولم يذق فيه للنوم طعما ، وها هو الشيطان يحدثه : « أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابىء وتركت دين آبائك . للموت خير لك مما صنعت » .

أقبل حمزة على نفسه يقول : « ما صنعت اللهم إن كان رشداً فاجعل تصديقه فى قلبى ، و إلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا » . ثم حدثته نفسه مرة أخرى :

« إن عند صاحب الدين المعونة الصادقة فى أمره » . . فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عليه خاشعاً . . ما لهذا النور من عينى هذا الرجل يقذف فى قلبه ويقيده فلا يستطيع فكاكا . . ما هذه القوة الخالدة التى يلقيها إليه وإنه ليتقدم إليه حزيناً متحسراً .

— يا ابن أخى إنى قد وقعت فى أمر ولا أعرف المخرج منه — وإقامة مثلى على ما لا أدرى ما هو ، أرشد أم غى شديد فحدثنى حديثاً فقد اشتهيت يا ابن أخى أن تحدثنى .

وأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ووعظه وخوفه وبشره . . . سمع حمزة وبكى . . بكى الضيغم المصور ، إن هذا القرآن لينزل على الكائنات فتخشع وتسجد ولقد سجد حمزة وآمن — وصاح : « أشهد أنك الصادق شهادة الصدق ، فأظهر يا ابن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول » . وشهدت السماء والأرض أن حمزة بن عبد المطلب أسلم وآمن .

٢ — منعة الأسر :

أسلم حمزة وعرفت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه — وفكروا فى عروض يعرضونها عليه — فأرسلوا عتبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم — عرضوا عليه المال والملك . . وعرضوا عليه السلطان والقوة ولكن ما فتن هذا كله رسول الله وقد أوتى مفاتيح كل شىء .

ولقد فنى حمزة فى دين الله ، وقريش ترهبه وتخشاه ، ويعلن هو دينه فى كل مكان ، ولكنه فوق هذا حمل جانباً من المقاومة السلبية التى قاومتها قريش لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما المقاومة الإيجابية المستمرة فلم يصل إلى حمزة منها شىء . كان أعز من أن تصيبه قريش بشىء منها ، وفكر عمر بن الخطاب (قبل إسلامه) فى قتل الرسول وذهب إلى أخته وأسلم على يديها ثم ذهب إلى الرسول متوشحاً سيفه وضرب على الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب

رسول الله فنظر من خلل الباب فرآه فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف — وهنا قام حمزة بن عبد المطلب قائلا :

— فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلنا له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه— ما عاد حمزة يخشى شيئاً فى دين الله . . . فليحار به قومه أو فليحارب هو قومه فلن يأبه بشىء ، إن غايته الله فله يحيا .

٣ — الهجرة :

الدعوة لا بد أن تنتشر فى الأرض . . وقد هاجر قوم بدينهم إلى بلاد الحبشة ، فليست هى لمكة ولا لبلاد العرب — إنها دعوة الوجود كله — تحاول أن تشمل الأمم جميعاً فى وحدة كاملة وتسيطر على ضمائر الناس فتلغى فوارقهم وعصبياتهم وتقيم أساساً آخر للوجود الإنسانى وتاريخ هذا الدين عجيب نادر . . كلما حار به قوم تلقفه آخرون ، وكلما حط به قوم رفعه غيرهم — فكان له على الدوام عوامل القوة والفيض وهاهى مكة تقاومه فتسعى إليه يثرب . وقد هاجر المهاجرون أرسالا — وهاجر حمزة ابن عبد المطلب . وتلك المجالس التى قضى فيها ميعة صباه ، وتلك الأودية والآكام التى عاش فيها لاهياً متنعما — وأولئك الخلان لقد انتهت صحبتهم . ونزل حمزة بن عبد المطلب فى المدينة فقيراً لا يملك من الحياة شيئاً غير إيمانه — وإيمانه كان لديه الحياة كلها وما بعد الحياة — ترك فى مكة أمواله وأملاكه — وأصبح عيلة على الأنصار وقد آثروا هؤلاء المهاجرين على أنفسهم .

ويسعى حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله يطلب منه أن يجد له ما يقتات به . . . سيد قريش يأبى أن يكون عالة على أحد . . والمسغبة تؤلمه .

وكان لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤاخى بين المسلمين — فآخى بين حمزة وبين مولاه زيد بن حارثة — ولقد رضى الشريف القرشى مؤاخاة العبد الرق فلقد محا الإسلام تلك الفروق .

تلك المعيشة الجدباء من لذائذ الحياة المليئة بالتقوى والإيمان عاشها حمزة السيد القرشي فى المدينة حتى أذن الله للمسلمين فى القتال .

* * *

٤ — أسد الله — وأسد رسوله :

« أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » . ٢٢/٣٩ آن للمسلمين أن يردوا العدوان عنهم بالسيف — وقد غز الرسول فى الأبواء وحين عاد منها بعث فارس قريش حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص فى ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة . هل يرعب حمزة هذا ؟ أبداً لقد أقدم على القتال ولكن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض — هنا وقفة عظيمة من مواقف ابن عبد المطلب . إنه ليعلم أن عدوه عشرة أمثاله — ولكن لم يصرفه هذا عن غايته و إنما أراد الحرب وقد قال حمزة فى ذلك شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه :

بأمر رسول الله أول خافق	عليه لواء لم يكن لاح من قبلى
لواء لديه النصر من ذى كرامة	إله عزيز فعله أفضل الفعل
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا	مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا	وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً	فخاب ورد الله كيد أبى جهل
وما نحن إلا فى ثلاثين راكباً	وهم مائتان بعد واحدة فضل
فيا آل لؤى لا تطيعوا غواتكم	وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل
فإنى أخاف أن يصب عليكم	عذاب فتدعوا بالندامة والثكل

وهذه قريش فى بدر خرج منها الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وكان رجلا شرساً سيء الخلق — فقال : وقد بنى المسلمون حوضاً ، أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه — فلما خرج وخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فلما التقيا ضربه حمزة قاطعاً قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر بيمينه — وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض — ثم نادى منادى قريش : « يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم يا عبيدة ابن الحرث — قم يا حمزة — قم يا على . . » وصاح عتبة بن ربيعة : من أنتم ؟

فأجابه حمزة : أنا حمزة أسد الله وأسد رسوله . وتبارزوا فقتل حمزة وصاحباه المشركين ثم تزاحف الجمعان وثار النقع وحمزة كالسيل يهجم يميناً وشمالا وينتقل من مكان إلى مكان — فيفتك بالمشركين فتكا ذريعاً فتنهار الكتائب ، ويفزع صناديد قريش ويختلط حابلهم بنابلهم ويولون الأدبار وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة .

وأسر أمية بن خلف — أسره عبد الله بن مسعود فبينما هما يسيران قال أمية :

— يا عبد الله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟

— ذاك حمزة بن عبد المطلب .

— ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ؟

عادت قريش بالخزى والعار ومناديهم ينادى : « لقد أذل حمزة بن عبد المطلب شرفكم ووضع من قدركم ، وجعلكم الأذلة المستعبدين فى الأرض — مات بيديه صفوة رجالكم وأصحاب الصدارة فى منتدياتكم فيالثارات قريش ويا لأحقادها الكامنة » .

وفى تلك الآونة كان حمزة بن عبد المطلب يعود إلى يثرب تحت لواء الرسول خاشعاً مطرقاً .

* * *

٥ — صرعة الأسد :

واستعد القرشيون للقتال فى العام التالى . . وقبل أن يسير المشركون إلى القتال دعا جبير بن مطعم غلاماً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطىء بها فقال له : « اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد ، بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق » .

ثم خرجت قريش بجدها وحديدها وجدها وأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالنساء التماس الحفيظة وأن لا يفروا — وخرج أبو سفيان ومعه امرأته هند بنت عتبة . . وكانت كلما مرت بوحشى أو مرّ بها تقول له :

« ويها أبا دسمة اشف واشتف » يعنى تحرضه على قتل حمزة — لأنهم عرفوا أنهم لن ينالوا منه منالا إذا ماواجهوه فى قتال — إذن فليقتلوه غيلة .

ابتدأ القتال — وهجم حمزة بن عبد المطلب فى مقدمة الصفوف حتى قتل أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم . وكذلك قتل عثمان بن أبى طلحة حامل لواء قريش — ثم قتل سباع بن عبد العزى ، ثم هجم على قريش يفرق صفوفها ويقتل رجالها .

يقول وحشى : والله إنى لأنظر لحمزة يهد الناس بسيفه ثائر الرأس ما يلقى شيئا يمر به مثل الجمل الأورق إذ قد تقدمنى إليه سباع وهو يقول . . . ألا من مبارز فقال له حمزة « هلم ياابن مقطعة البظور أتحادّ الله ورسوله ! ! » وكانت أم سباع ختانة بمكة — ثم ضربه ضربة هائلة قتلته ، وكنت كامنا تحت صخرة لا يرانى وهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوى فغلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت إلى المعسكر ولم يكن لى بشىء غيره حاجة — وكان ذلك آخر العهد به .
وأقبلت هند بنت عتبة على حمزة فبقرت عن كبده ولاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها — ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعُر
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكرى
شفيتُ نفسى وقضيت نذرى شفيتَ وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى حتى تَرِمَّ أعظمى فى قبرى

ووقف أبو سفيان يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : « ذق عقق » فقال الحليس بن زيان سيد بنى كنانة « يا بنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون لحما . فقال أبوسفيان « ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة » .

مات حمزة بن عبد المطلب . . .

أحمزة ذاكم الرجل القتيل . . . لقد حملت الملائكة إلى السماء أن حمزة سيد الشهداء .

* * *

هاهم أولاء المسلمون يرون هند بنت عتبة تأخذ كبد حمزة وتلوكها ، ويقول رسول الله : أأكلت شيئا ؟ . قالوا : لا . قال ما كان الله ليدخل حمزة فى النار .

* * *

ثم حمل إليه . . ورأى رسول الله عمه ووزيره قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه . . فقال « لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير — ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السماوات السبع ، حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله — ما وقفت موقفا أغيظ إلى من هذا » .

وفى تلك اللحظة أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها ولأمها — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام — « القها فارجعها لا ترى ما بأخيها » . فقال لها : — يا أمّه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعى .

— ولم ؟ ! وقد بلغنى أن قد مُثل بأخى ، وذلك فى الله فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك قال له : خل سبيلها . . .

صلى رسول الله على حمزة وجيء برجل من الأنصار فصلى الرسول عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة ثم دفن مع ابن أخته عبد الله ابن جحش .

ونزل الوحى على الرسول « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم فهو خير للصابرين » ١٦ / ١٢٦ . فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ونهى عن المثلة . . .

* * *

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل إلى بيته بالمدينة ونوائح الشهداء ينحن ويبكين على قتلاهن — أولئك الذين صبروا تحت اللواء فقال :

— ما هذا ؟

— هن نساء الأنصار يبكين قتلاهم . فقال :

— « لكن حمزة لا بواكى له » .

واستغفر له . فسمع ذلك سعد بن معاذ ، فمشى إلى دار بنى عبد الأشهل وأتى بنسائهم فوقفوا على باب رسول الله وقال : « والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عم النبى صلى الله عليه وسلم فإنه قد ذكر أنه لا بواكى له . . . وقفن يبكين :

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا   أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعاً   هناك وقد أصيب به الرسول

سمعهن رسول الله فقال — ما هذا . . فأخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم فاستغفر

لهم وقال لهم « رحم الله الأنصار إن المواساة منهم ما عتمت لقديمة » ثم قال « ماهذا أردت وما أحب البكاء » ونهى عنه . . .

هذا كعب بن مالك يبكى حمزة . . .

قِرم تمكن فى ذؤابة هاشم   حيث النبوة والندى والسؤدد
والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت   ريح يكاد الماء منها يجمد
والتارك القرن الكمى مجدلا   يوم الكريهة والقنا يتقصد
وتراه يرفل فى الحديد كأنه   ذو لبدة شثن البراثن أربد
عم النبى محمد وصفيه   ورد الحمام فطاب ذاك المورد
وأتى المنية معلما فى أسرة   نصروا النبى ومنهم المستشهد

وهذا حسان يبكى سيد الشهداء . . .

يا حمزة ، لا والله لا   أنساك ما صُرّ اللقائح
لمناخ أيتام وأضياف   وأرملة تلافح
ولما ينوب الدهر فى   حرب لحرب وهى لاقح
يا فارسا يا مدرها   يا حمز قد كنت المصافح

* * *

مات حمزة — وانتهت صولة الأسد — تلك الأصوات التى كان يلقيها مملوءة بآيات التوحيد ، فتفزع أمامه الجحاجح وتنهار أمام عينيه حجب الزمان والمكان .

مات . . . ووقف الرسول يبكيه أعظم البكاء . . .

مصعب بن عمير

« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ١٣ : ٢٣ :
٢٤ — سلام عليكم بما صبرتم — فنعم عقبى الدار »
« لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة منك
ولا أحسن لمة منك — ثم أنت أشعث الرأس فى بردة »

فى بيت من بيوت سراة بنى عبد الدار ولد مصعب بن عمير لأبوين شريفين ، أما أبوه فعمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار كان فى الذروة من قومه جاها ومالا . أما أمه فخناس بنت مالك كانت مليئة كثيرة المال ترعى أولادها أحسن رعاية وتكسوهم أحسن ما يكون من الثياب وأرقه — وكان لمصعب عندها المكانة الممتازة فقد كان أعطر أهل مكة وأجملهم يفيض تيها ودلالا يمر بين أحياء مكة فترمقه عيون فتياتها ويسترعى منظره ساكنيها ، ويقبل مصعب على تلك الحياة الناعمة المترفة فيأخذ منها بأكبر نصيب ويرى فى مفاتنها الغاية القصوى للحياة — ويمهد له شرف أبيه وثروة أمه ما يريد من متاع فلا يُرَى إلا ضاحكا مقبلا على الدنيا كأشد ما يكون الإقبال عليها .

تمضى الليالى مسرفة فيما هى فيه من مفاتن على مصعب فلا يرى فيها ألماً ولا ضنكا ولا نَصَبا — وتدور الأيام بمصعب فترى منه فتيات الحى إعراضا وابتعادا وتلمح أمه على وجهه آثار تفكير عميق وجد لم يلم فيه من قبل وعزم صارم يبدو على وجهه الجميل ، وتحاول أمه بما وهبها الله من غريزة خاصة أن تصلَ إلى ما يدور فى نفس فتاها فلا تتمكن — ومصعب يزيد فى جد الحياة إمعاناً وكأن أيامه السوالف حلم رهيب أو أشباح ماضية لم يعد بينه وبينها صلة من الصلات .

تروع أمه هذه الحالة الجديدة فتتساءل وتتساءل وتلح فى السؤال ومصعب يزداد إمعانا فى السكون ولكن ما لبثت أمه زمنا طويلا حتى جاءها عثمان بن طلحة النهدى يخبرها أن مصعبا أسلم ؛ فلقد بصر به عثمان يصلى . . .

. . . أتى « دار الأرقم » البيت الخالد ساكن جديد هو مصعب بن عمير . دخل الفتى الفاتن العاطر إلى محمد رسول الله ليسمع كلامه و يتأمل حقيقة الدعوة الجديدة تلك الحقيقة التى كانت كلها جداً وقوة وصراحة . وكانت كلها دعوة إلى الانصراف عن حياة قريش الناعمة المترفة — لم يثن كل هذا مصعب بن عمير ، لقد سمع وفكر وآمن وأسلم . لقد هاجر مصعب بن عمير هجرته الأولى عن متاع الحياة ومفاتنها إلى الله ورسوله ، وكانت تلك الهجرة الأولى هى سر تفكيره العميق .

* * *

علم أهله إذاً بإسلامه فأخذوا يذيقونه ألواناً من التضييق والعذاب ثم حبسوه . ولكن لم يله كل هذا مصعبا عن دينه ، آمنت النفس الكبيرة — وإيمان النفس تسامى على كل ما يقف فى وجهها من عقبات فلا تلقاها إلا صغائر وتوافه .

ودعا محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الهجرة إلى أرض النجاشى — وقد هاجر مصعب فيمن هاجر مفارقاً أهله وعشيرته غير واضع نصب عينيه إلا هذا المثل — مثل المهاجرة فى سبيل الله .

وكانت تلك هجرته الثانية . . .

وأصاب مصعب هناك من جدب العيش ما أصابه حتى رجع متغير الحال إلى مكة فيمن رجعوا إليها . وعاش مصعب فى فقر مدقع حتى إنه ليقبل ذات يوم والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه وعليه ملابس ممزقة ؟ فلما رآه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نكسوا رءوسهم له ليس عندهم ما يغيرون عنه ثم تبسم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه عليه وأحسن عليه الثناء وقال : « الحمد لله ليقلب الدنيا بأهلها لقد رأيت مصعبا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه ثم أخرجه من ذلك ذلك الرغبة فى الخير فى حب الله ورسوله » .

ولما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر من أهل يثرب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم — المهاجر الدائم — مصعب بن عمير يفقههم فى القرآن الكريم

وكانت تلك هجرته الثالثة .

نزل « مصعب » على « سعد بن زرارة » وكان يأتى الأنصار فى دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام و يقرأ عليهم القرآن فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا فى دور الإسلام كلها .

وعلى يديه أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ؛ ثم كتب إلى رسول الله صلوات الله عليه يستأذنه أن يجمع بهم فأذن له فجمع بهم فى دار سعد بن خيثمة فهو أول من جمع فى الإسلام جمعه .

واستدار العام وخرج حاج الأوس والخزرج إلى رسول الله لكى يبايعوا بيعة العقبة الثانية وخرج معهم مصعب بن عمير — وقد رافق فى رحلته أسعد بن زرارة فقدم مكة فجاء منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ولم يقرب منزله فجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام واستبقاه رسول الله صلوات الله عليه وقد سر بكل ما أخبره — و بلغ أمه أنه قد قدم فأرسلت إليه : « يا عاق — أتقدم بلداً أنا فيه ولا تبدأ بى » فأجاب : « ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم » فلما سلم على رسول الله صلوات الله عليه — ذهب إلى أمه فقالت :

— إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ؟ . . .

— أنا على دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام الذى رضى الله لنفسه ولرسوله .

— ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بأرض يثرب .

— أفر بدينى أن تفتنونى .

فأرادت أمه حبسه مرة أخرى فقال :

— لئن أنت حبستنى لأحرض على قتل من يتعرض لى .

قالت — فاذهب لشأنك — وجعلت تبكى ! فقال مصعب :

— يا أمه إنى لك ناصح ، عليك شفيق فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

— والثواقب لا أدخل فى دينك فيزرى برأيى و يضعف عقلى ولـكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى .

وأقام مصعب مع النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر ثم هاجر إلى المدينة ثانية لهلال شهر ربيع الأول قبل مقدم رسول الله صلوات الله عليه باثنتى عشرة ليلة .

وهاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام الدولة الأولى ، وعاش مصعب ابن عُمير تلك السنين الأولى العجاف التى مرت بالمسلمين راضياً حتى دعا الله إلى الذب عن الدين بالسيف — واشتعلت نار الحرب بين قريش والمسلمين فى بدر ، وكان مصعب من أبطالها الميامين .

وعادت قريش تحمل الخزى والعار إلى مكة وفى القَليب أشرافها وأصحاب الصدارة فيها مضرجين بالدماء ، واشتعلت النار مرة أخرى فى « أُحد » وانتصر المسلمون أوَّل النهار ، ولـكن ما لبث أن نظر بعضهم إلى متاع الدنيا فهزموا ، وكان مصعب يحمل لواء المسلمين فثبت به ثبوت الرواسى ، فأقبل ابن قميئة (فارس من قريش) فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُل » وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضرب يده اليسرىٰ فقطعها فحنا على اللواء وضمه بعضديه على صدره وهو يقول : « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل » ، ثم حمل عليه بالثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ، ووقع مصعب وسقط اللواء ، فابتدره رجلان من بنى عبد الدار ، سويبط بن سعد وأبو الروم ابن عمير ، فأخذه أبو الروم ووقف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء يقرأ الآية : « من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ فمنهم من قضى نحبَهُ ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا » . ثم حمل إليه مصعب بن عُمير ، فنظر إليه وقد تذكر أيامه المـاضيات فى مكة فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ، ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت مشعث الرأس فى بردة . ثم أمر به أن يقبر فنزل

فى قبره أخوه أبو الروم بن عمير وعامر بن ربيعة وسويبط بن سعد بن حرملة .

وكانت تلك هجرته الأخيرة فى الأربعين سنة إلى الله ورسوله .

* * *

فتحت البلدان على المسلمين وملكوا العالم بأجمعه ، وفى حلقة من حلقات مسجد النبى صلوات الله عليه وقف خبّاب بن الأرتّ يقول : هاجرنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله ، فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئا ، منهم مصعب بن عمير ، ومنهم من أينعت له ثمرته فهو يهدبها ، قتل يوم أحد فلم نجد ماكفّنه فيه إلا بردة إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه ، فأمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نغطى رأسه وأن نجعل عليه من الأذخر . خ ٢٣ : ٢٨

* * *

وسكت القوم لقارئ يقرأ فى جانب من جدران المسجد . . . « والملائكة يدخلون عليهم من كل بابٍ سلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقْبَى الدار » ١٣ : ٢٣ ، ٢٤

الطلل الخـــابى

« أيتها الدار الرفيعة المنار ، كم علا فى رحابك من أناشيد الوجود . . وكم ذكر اسم الله . . تلك الأصوات التى كانت ترتفع فى جنباتك الواسعةأصبحت أثراً يتحدث به الناس . . وأصحابك الغر طواهم الدهر الرهيب . . إلا أنهم عاشوا وماتوا أكفاء لمباهلة الرجال » .

الحياة تنساب فى مكة انسياباً ، ودورها مفتوحة عامرة ، يخرج منها أهلها ويدخلون واللهو فيها كما هو ، بل زاد القرشيون إمعاناً فى شهواتهم ولذائذهم . لقد خرجت منها الحفنة القليلة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فما أحس بهم إنسان . . حقاً إن قريشاً لتفكر تفكيراً عميقاً فى هؤلاء النفر من قريش الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فصغرت الدنيا جميعها فى نفوسهم فما أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، البلد النائى البعيد ، حتى هاجروا . . فلما مهد الله لهم السبيل إلى يثرب . . أمرهم بالرحيل إليها فرحلوا . . حقاً إن قريشا لتفكر فى هؤلاء الذين حاولت فتنتهم فما افتتنوا وصبّت عليهم أنواع العذاب فما وهنوا . . تفكير عميق مايلبث أن يزول حين تقبل الدنيا وشهواتها الغرور . . ولكن مازال يتردد فى النفس قويا .

سار مشيخة قريش — عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام — مصعدين إلى أعلى مكة ، فلمحوا دار بنى جحش وقد غلقت — لقد أوعب أصحابها جميعاً إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة رجالهم ونسائهم . . فلا ساكن فيها بعد ولا مقيم .

نظر إليها عتبة بن ربيعة وهى ساكنة وحيدة تسفعها الرياح وتصطدم بعرصاتها وتخفق أبوابها يباباً — فتنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب[1]

(١) الحوب : التوجع .

ثم قال بعد هنيهة : أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها . فقال أبو جهل : وما تبكى عليه من فل[1] بن فل . . هذا عمل ابن أخى — فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا .

* * *

يارسالة الخلد الأبدية . . إنهم مافهموا حقيقتك بعد ، ولو اطلعوا على جوهرها السامى لعلموا أنه بجانبك تتضاءل الدنيا جميعها فلا أهل ولا ولدان ، ولا مال ، ولا متاع . . وأنت أيتها الدار الرفيعة المنار كم علا فى رحابك من أناشيد الوجود ، وكم ذكر اسم الله . . تلك الأصوات التى كانت ترتفع فى جنباتك الواسعة أصبحت أثراً يتحدث به الناس . . وأصحابك الغر طواهم الدهر الرهيب إلا أنهم عاشوا وماتوا أكفاء لعباهلة الرجال . . .

* * *

وعدا أبو سفيان على دار بنى جحش فباعها فذكر عبد الله ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ألا ترضى ياعبدالله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها فى الجنة قال : بلى . قال : فذلك لك .

* * *

إن المسلمين ليخرجون إلى يثرب أرسالا وجماعات . . ومن بينهم أحياء ثلاثة هاجرت بأكملها : بنو مظعون وبنو البكير وبنو جحش .

وكان على رأس بنى جحش . . عبد الله بن جحش ، سيد الحى ، دعا رسول الله دعوته فآمن به قبل أن يدخل دار الأرقم ثم أمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة فهاجر هو وأخوه أبو أحمد وأخواتهما زينب بنت جحش وحمنة بنت جحش وأم حبيبة بنت جحش . . . ثم حين عادوا إلى مكة أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب فهاجر الحى بأكمله من ذهب منهم إلى الحبشة ومن لم يذهب .

القافلة تسير مهاجرة إلى الله ورسوله وأبو أحمد بن جحش وكان شاعراً كفيف

---

(١) فل : واحد .

البصر يردد هجرة بنى جحش بن غنم بن دودان :

لما رأتنى أم أحمـــد غادياً بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لابد فاعـلا فيمم بنـا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا وما يشـأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم إلى الله يوما وجهـه لايخيب

* * *

ونزل عبد الله بن جحش وأخوه أحمد على عاصم بن ثابت أبى الأقلح وتفرق بقية الحى بين بيوت الأنصار يعيشون فى رحابهم . . حتى نادى منادى الجهاد . . وأراد رسول الله أن يخرج لقريش من يترصد لهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن جحش وأمره أن يخرج مع ثمـانية من أئمة المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد . . . قال سعد بن أبى وقاص قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لأبعثن عليكم رجلا أصبركم على الجوع والعطش » فبعث علينا عبد الله بن جحش وكتب له كتابا وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً . . .

سارت كتيبة المهاجرين وعلى رأسهم عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الـكتاب إذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الـكتاب قال : « سمعاً وطاعة . ثم التفت إلى أصحابه قائلا : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد — وسلك على الحجاز حتى إذا كان

بمعدن فوق الفرع أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه فى طلبه ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل تجارة لها فيها عمر بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل .

رآهم القرشيون وقد نزلوا قريباً من القوم . . فتشاور المسلمون وذلك فى آخر يوم من رجب فقالوا : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام » .

تردد القوم قليلا ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على مهاجمتهم ، وهجمت كتيبة الله على المشركين فقتل عمرو بن الحضرمى بسهم واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب نوفل بن عبد الله .

* * *

فلما قدم عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : —

« ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

وأبى أن يأخذ من الغنيمة شيئاً واتخذت قريش من هذه الغزوة دعاية قاسية ضد رسول الله قائلة : « قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال » ، وزاد تعنيف المسلمين لعبد الله وسُقِط فى يده ، ولكن ها هو الوحى ينزل من مالك الأرض والسموات « يسألونك عن الشهر الحرام — قتال فيه — قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل . ٢/٢١٧ » .

الله أكبر . . . . ذهب عن عبد الله وأصحابه ما كان بهم من خوف وروع وقسم رسول الله الغنائم بين المسلمين وزاد فى فرح المسلمين أن أحد الأسيرين — الحكم بن كيسان — أسلم لله ورسوله .

وانطلق عبد الله يقول لقريش :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يرى لله فى البيت ساجد

واشتبك المسلمون فى بدر وأبلى عبد الله مع بنى غنم بن دودان أحسن بلاء .

* * *

المسلمون فى ظاهر المدينة يستعدون لأُحُد . . وهذا عبد الله بن جحش ينادى سعد بن أبى وقاص : « ألا تأتى ندعو الله » .

وسار الصحابيان الجليلان إلى مكان خال وهناك وقف فدعا سعد : « اللهم إذا لقيت العدو غداً فلقينى رجلا شديداً بأسه شديداً حرده فأقتله فيك وآخذ سلبه » فآمن عبد الله على ذلك . ثم وقف ودعا هو « اللهم ارزقنى غداً رجلا شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويأخذنى فيجدع أنفى وأذنى فإذا لقيتك قلت : يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك فأقول : « فيك وفى رسولك » . . فقال سعد : « صدقت » .

واشتبك الفريقان فى حرب طاحنة وقد وفى عبد الله أحسن الوفاء وفعل الله به ما دعا له . فقد اقتتل . بعد أن أبلى فى القتل أحسن بلاء مع أبى الحكم بن الأخنس ابن شريق فقتله هذا الأخير . وكان عمره يومئذ نيفاً وأربعين سنة .

لقد مات المجدع فى الله كما كانوا يدعونه ومر به سعد بن أبى وقاص فتذكر الأمس القريب . فقال له : كانت دعوتك خيراً من دعوتى ، لقد رأيتك آخر النهار وأن أنفك وأذنك معلقان فى خيط .

ثم دفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب فى قبر واحد .

* * *

انتصر المسلمون ودخلوا مكة ، وتوجه أبو أحمد إلى رسول الله يطالب بدراهم فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال المسلمون لأبي أحمد : يا أبا أحمد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا فى شيء من أموالكم أصيب منكم . فأطاع أبو أحمد وأمسك عن كلام رسول الله وقال لأبى سفيان :

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامة
اذهب بها . . اذهب بها طوقتها طوق النعامة

* * *

وقف سعيد بن المسيب أمام التابعين فى مسجد رسول الله يقص حياة عبد الله ابن جحش . . ثم قال : « فإنى أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله » .

لقد باع داره واستربح الثمن — داراً فى الجنة — فنعم العقبى .

أصبحت الدار التى سلبت منه فى الله طللا ماضياً ، وهو الآن فى دار البقاء . . وتمتع الناس بلذائذ الحياة . لذائذ الأرض . أما هو . ففى لذات السماء .

الأوفيـــــاء ..

« يا واقعة أحد أنت مصدر الإنسانية الشامل ، فيك سائر المعانى والمشاعر ، فيك الوفاء وفيك الخيانة ، فيك الصدق وفيك الكذب ، فيك الثبات وفيك الفرار ، فيك الإيمان وفيك النفاق ، فيك الخير وفيك الشر ، فيك كل شىء يا واقعة أحد ، فأنت العبرة التى يستمد المسلمون منها كل شىء » .

اقترب المشركون من المدينة بجيشهم الجرار لسبع خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة فى ليلة الجمعة عليهم السلاح فى المسجد خوفاً على رسول الله من المشركين وحرست المدينة تلك الليلة من جميع وجوهها ، وفى الصباح ظهر الرسول على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنى رأيت فى منامى رؤيا — رأيت كأنى فى درع حصينة — ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انقصم من عند ظبته ورأيت بقراً تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشاً » .

فقال الناس : يا رسول الله فما أدلتها ؟

قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفى من عند ظبته فقتل رجل من أهل بيتى ، وأما البقر المذبح فقتلى فى أصحابى ، وأما مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله » .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ثم قال : « أشيروا علىّ أيها الناس » ورأى عبد الله بن أبىّ أن لا يخرج ، ولكن قام حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة فى غيرهم من الأوس والخزرج قائلين : « إننا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا

فى ساحتنا » . ورسول الله من إلحاحهم كاره ؛ وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم ويتسامرون كأنهم الفحول ، ووقف حمزة ، وكان صائماً يوم الجمعة « والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى » ، وخرج حمزة يوم السبت صائماً ومات وهو صائم ، ورفعته الملائكة إلى السماء صائماً عن الدنيا كلها .

ووقف النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم : « يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك وأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالذى لا إله إلا هو لأدخلنها » .

فقال رسول الله : بم ؟

— إنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .

— صدقت .

والتقى الجمعان وارتفع اللواء فلم يهن النعمان بن مالك ولم يجزع بل كان أول الموفين بعهدهم فرزق الشهادة التى أراد .

وقال إياس بن أوس بن عتيك : « يارسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ، نرجو يارسول الله أن نذبح فى القوم ويذبح فينا ، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار — مع أنى يارسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمدا فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه أجرة لقريش ، وقد وطئوا سعفنا فإذا لم تذب عن عرضنا لم يزرع ، وقد كنا يارسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا — حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنا — فنحن اليوم أحق — إذ أيدنا الله بك وعرفنا مصيرنا لانحصر أنفسنا فى بيوتنا » .

وارتفع اللواء . . لواء رسول الله . . وكان إياس بن أوس المطمئن إلى مصير خالد فى جنات عدن أول المذبوحين .

« مالك بن سنان » اجتمع عليه جدب الحياة وخلو المال فلم ييأس ولم يهن ولم يمد يده إلى كائن من كان . وفرغ المال جميعه من يده ، ولكنه لم يسأل ولم يلجأ إلى

مخلوق « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا » ٢ / ٢٧٣ وتمر عليه أيام ثلاثة وهو لايذوق طعاما ، يعلم رسول الله فيقول للمسلمين فى المسجد « من أراد أن ينظر إلى العفيف فلينظر إلى مالك بن سنان » .

وفى صباح يوم الجمعة الذى اجتمع فيه المسلمون لتقرير خروجهم أو عدم خروجهم وقف مالك فقال : « نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد — والأخرى يارسول الله يرزقنا الشهادة ، والله يارسول الله ما أبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير . »

وارتفع اللواء . . لواء رسول الله . . وفر كثير من المسلمين . . ولكن مالكا ثبت فى وجه الكفار يقاتل قتال الأبطال ثم أقبل نحو الرسول فرأى وجهه قد أصيب فاستقبله مالك ومسح الدم عن وجه الرسول الأعظم ثم ازدرده ، ووقف أمام المشركين يقاتل حتى مزقته الطعنات .

وقبل أن يسجى فى قبره صاح الرسول فى المسلمين : « من أحب أن ينظر إلى من خالط دمى دمه فلينظر إلى مالك بن سنان . »

* * *

« السميرا بنت قيس » إحدى نساء بنى دينار بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء يوم أحد أرسلت ابنيها النعمان بن عبد عمرو وسليم بن الحارث . .

وخرجت السميرا ، وذلك قبل أن ينزل الحجاب على نساء المسلمين إلى أُحُد لتسأل عن نتيجة القتال ، وكان ابناها قد استشهدا ، فنعيا لها فقالت : مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : خيرا ، هو بحمد الله صالح على ماتحبين .

— أرونى أنظر إليه .

فأشاروا لها إليه ، فقالت : كل مصيبة بعدك جلل (أى بسيطة) ثم حملت ابنيها على ناقتها ورجعت إلى المدينة فقابلت عائشة أم المؤمنين ، فقالت ماوراءك ! ؟

فقالت السميرا : « أما رسول الله بحمد الله بخير لم يمت واتخذ الله من المؤمنين

شهداء « وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال » ٣٣ / ٢٥ ، فقالت عائشة : « ومن هؤلاء معك » قالت : ابناى . .

وتلك صورة من صور نساء المسلمين الأوليات .

* * *

« الحارث بن أنس » من بنى عبد الأشهل ، وكم لبنى عبد الأشهل ، من أياد على الإسلام . . خرج الحارث بن أنس ويكنى بأبى الحيسر إلى مكة التماس الحلف على الخزرج ومعه فتية من بنى عبد الأشهل خمسة عشر رجلا فيهم إياس بن معاذ ، وأظهروا أنهم يريدون العمرة فنزلوا على عتبة بن ربيعة فأكرمهم وطلبوا إليه وإلى قريش أن يحالفوهم على قتال الخزرج فقالت قريش : « بعدت داركم منا حتى يجيب داعينا صريخكم وحتى يجيب داعيكم صريخنا » وسمع بهم الرسول فآتاهم ، فجلس إليهم فقال : « فهل لكم إلى خير مما جئتم له » قالوا : « وما ذاك » ؟ قال : « أنا رسول الله بعثنى الله إلى عباده أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا — وقد نزل على الكتاب » فقال أياس بن معاذ :

« ياقوم هذا والله خير مما جئتم له » . فأخذ أبوالحيسر وقد تملكته حمية الجاهلية كفا من البطحاء فرمى بها وجهه ثم قال : ما أشغلنا عن هذا ياقوم ولم يقدم وفد على قوم بشر مما قدمنا به على قومنا إنا خرجنا نطلب حلفا على عدونا فنرجع بعداوة قريش مع عداوة الخزرج ، ثم لم ينشب أياس حين رجع أن مات — فلقد سمعناه يهلل حتى مات — فكانوا يتحدثون أنه مات مسلما لما سمع من رسول الله .

وتستدير الأعوام ويؤمن أبو الحيسر بالله ورسوله — ويخرج إلى بدر فيقاتل أحسن القتال ، وفى أحد لم يفر ولم يهرب . . بل وقف كالطود الثابت حتى قتل — وكان موطنه السرمدى جنات لا تزول .

١ ــ تحت اللواء . . .

آل نسيبة بنت كعب

« نامت نسيبة بنت كعب فى جنة البقيع مع الصديقين والشهداء ، وارتفع مقامها العلوى فى الأرض إلى مقام أعلى فى السماء . . »

انتشرت دعوة الله فى يثرب وسارع هذا الحى منها « بنو النجار » إلى الإيمان بها وكان فى مقدمتهم زيد بن عاصم وزوجته نسيبة بنت كعب « أم عمارة » وولداها عبد الله وحبيب . . . أضاء الإسلام جوانب هذا البيت العظيم واختلط بدماء أهله فكانوا أول المؤمنين به ، وأول الداعين له ، واستدار العام وخرج المسلمون إلى الكعبة للحج وخرجت معهم نسيبة وزوجها وولداها . كانوا جميعا يتحرقون شوقا لرؤية مصدر النور الإلهى الذى نعموا به وسينعمون وستنعم به الدنيا من بعدهم . والإبل ترتفع وتنخفض فى دروب الطرق حتى أقبلوا على مكة .

* * *

مضى ثلث الليل ونامت مكة ولكن أطيافا تمر فى هذا الظلام المدلهم مسرعة الخطى نحو العقبة مستخفية ما استطاعت وهناك فى الشعب وقف الأنصار فى مهابة وجلال ينتظرون مقدم النبى الأعظم . . ليشهدوا إله السموات والأرض على عهودهم ومواثيقهم . وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس شهدت الدنيا فى هذه الليلة أعظم صفحات الطهر والوفاء لقد عاهد الأنصار رسول الله أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم .

وبايعوا لم يتخلف منهم إنسان وتحت ظلال سيوفهم المسلولة بايعت « أم عمارة » « نسيبة بنت كعب » رسول الله ، ورجعت نسيبة مع قومها إلى يثرب تبعث فى نفوس أبنائها روح التضحية والإقدام وتحبب إلى نفوسهم غاية المسلم الحقة . القتال والاستشهاد

وهاجر رسول الله إلى يثرب ثم دعا إلى الجهاد ، فخرج عبد الله إلى بدر يقاتل تحت اللواء . . . لواء التوحيد الحق الذى أراد الكفرة والمشركون أن ينزلوه من عليائه فما استطاعوا ، لقد دافع عنه المسلمون وكانت الدائرة على الكفرة والمجرمين .

وعاد عبد الله إلى أمه قرير العين راضيا ببلائه فى سبيل الله ، أما حبيب فلم يكن قد بلغ الحلم بعد ، ولكن هذه الروح الصادقة التى تنبعث من نسيبة أمه تبعث فى نفسه أناشيد النصر ، أناشيد القوة ، الأناشيد التى تفجرت من ينبوع هذا الدين فكانت له السيادة على العالمين .

ومات زيد بن عاصم فخطبها غزية بن عمرو وتزوجها ، حتى إذا كان يوم أحد خرجت نسيبة لتسقى الجرحى ؛ ولم تكن آيات الحجاب قد نزلت بعد ، وخرج معها زوجها وابنها .

الريح والدولة للمسلمين ؛ ولكن أقواما منهم و بين يدى الرسول ينظرون إلى متاع الدنيا الفانى ، فيحاولون الاغتراف منها فيقبل عليهم عدوهم من كل جانب فينقلب النصر خذلانا ويفر الأبطال الأشاوس منهزمين لا يرجعهم شىء ، والمشركون يحيطون برسول الله من كل جانب وكلهم عدو موتور منه ، فلو اجتمعت عداوة الدنيا مابلغت عداوة هؤلاء ، وفى يد كل منهم سلاح ماحق وعتاد هائل ، وهم فوق هذا وذاك عدو منتصر ، وعدو لجب من الخلق .

فى تلك اللحظات . . اللحظات التى لا تنسى فى تاريخ الخلائق « ارتفع اللواء » لواء رسول الله يطلب من أولئك الذين آمنوا حق ما سعدوا به من إيمان . . إنها حقيقة أبدية إن حفظوها اليوم كانوا بعد اليوم من عناصر تلك الحقيقة ، فلا تعرف إلا وهم من أجزائها ، انطوت جوانحهم عليها فرعايتها اليوم حق الرعاية هى أبسط ما يتطلب جوهرها السامى منهم ، ولكن أين أين . . أين كل هذا فى هذه اللحظة العنيفة لقد اندفعوا لا يلوون على شىء .

ارتفع اللواء ، لواء رسول الله يذكر الذين عاهدوا عهودهم والذين [illegible]نبطوا

بمواثيق الله مواثيقهم ، ولـكن ما العهود وما المواثيق والموت يقط الرقاب قطا . . لقد مات حمزة بن عبد المطلب . . لقد مات مصعب بن عمير . . لقد مات عبد الله ابن جحش ، ماتت الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، فما للباقين إلا النجاة .

ارتفع اللواء ، لواء رسول الله ولـكن هل للحقيقة الإلهية أن تنتهى وتفنى ، هل لدعوة الله أن تتحطم وتتلاشى ، أبدا أبدا ، لقد ثبت حول اللواء حفنة قليلة مؤمنة لا تزيد عن عشرة وسط هذا الجحفل المشرك الـكافر .

آمنوا وكان إيمانهم يزن إيمـان الأمة جميعها إذا ادلهم عليهم الخطب وأحاطهم المشركون من كل جانب ، ارتفعت صيحاتهم بكلمة التوحيد ، والله يسمعها والملائكة كانوا الأوفياء الذين حفظوا دعوة الله يوم أن كادت تؤذن بالزوال وتساقطوا واحدا بعد واحد ولـكنهم كانوا كلما سقط واحد منهم ازدادوا مثابرة وصبرا ويقينا .

ومن بين هؤلاء كانت نسيبة بنت كعب وكان ابنها عبد الله ، وكان زوجها غزية .

* * *

ألقت « أم عمارة » نسيبة بنت كعب سقاءها حين هزم المسلمون واستلت سيفا تقاتل دون رسول الله وأخذت تتلقى النبل دونه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى . »

ثبت معها ابنها عبد الله وزوجها غزية فى نفر ما يتمون عشرة ، والناس يمرون منهزمين — ورآها رسول الله لا تِرْسَ لها فلمح رجلا موليا معه ترس فقال له « ألق ترسك إلى من يقاتل » فألقى ترسه فأخذته أم عمارة تترس به رسول الله .

وأقبل فارس من فرسان قريش فضربها فتترست له فلم يصنع سيفه شيئا وولى ، فهجمت عليه أم عمارة وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصيح : « يا ابن أم عمارة أمك أمك » فعاونها ابنها حتى قتلته .

يقول عبد الله بن زيد : جرحت يومئذ جرحا فى عضدى اليسرى ، ضربنى رجل كأنه الرقل ولم يعرج على ومضى عنى وجعل الدم لا يرقأ — فقال رسول الله :

اعصب جرحك ، فتقبل أمى إلى ومعها عصائب فى حقو يها قد أعدتها للجراح فربطت جرحى والنبي واقف ينظر إلى ثم قالت : « انهض بنا نضارب القوم » فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة . »

لك الله أيتها السيدة الطاهرة لم تكن الحياة لديك نعيما يقبل عليه الإنسان أو راحة يستعذبها المترفون ، و إنما كانت دفاعاً عن دين خالد وعقيدة علوية ، فحين كان الموت يتمشى خلال الصفوف وكانت الدماء تسيل أنهاراً ، وأنت وابنك وزوجك وسط معمعان الموت لم يأخذك الوهن أو الضعف أو الخوف على نفسك وولدك وزوجك ، بل كان كل هذا ضئيلا حقيراً بجانب الدفاع عن دين الله ورسوله ، لك العقبى وخير الأخرى .

* * *

وأقبل الرجل الذى ضرب عبد الله ، فقال رسول الله : « هذا ضارب ابنك » فاعترضت له وضربت ساقه فبرك ، فتبسم الرسول حتى رأت نواجذه وقال : استقدت يا أم عمارة ؛ ثم أقبلت تعله بالسلاح حتى أتت على نفسه فقال النبى : الحمد لله الذى ظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك .

وأقبل عبد الله مرة أخرى إلى جانب الرسول فقال : ابن أم عمارة ! فقال : نعم ! ؟ قال : ارم — قال « فرميت بين يديه رجلا من المشركين بحجر ، وهو على فرس فأصبت عين الفرس حتى هوى هو وصاحبه وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضدت عليه منها وقرا » .

* * *

هجم المشركون الهجوم الأخير على رسول الله لكى يستأصلوا شأفة المسلمين ويقتلوه عليه السلام ، فصبر الثابتون تحت اللواء وأقبل ابن قميئة يقول : دلونى على محمد لا نجوت إن نجا ، فاعترضت له نسيبة مع مصعب بن عمير ، فقتل المشرك مصعباً فوقفت فى وجهه نسيبة فضربها ضربة هائلة أصابها فى عنقها إصابة شديدة ، ولكنها ما وهنت بل ضربته ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان .

يقول ضمرة بن سعيد المازنى يحدث عن جدته أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى نسيبة بنت كعب يومئذ تقاتل أشد القتال و إنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً ، ثم تقول : و إنى لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها وهو أعظم جراحها . ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جرح نسيبة على عاتقها ، فنادى ابنها عبد الله « أمك أمك — أعصب جرحها . بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت » .

وسمعت نسيبة صوت الرسول ينادى بهذا والدم ينفجر منها انفجاراً ، فصاحت :

— أدع الله أن نرافقك فى الجنة .

فأجابها الرسول صلوات الله عليه: «اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » فهتفت حينئذ :

— ما أبالى ما أصابنى من الدنيا .

وانهارت حجب الزمان والمكان أمام عينيها ، ولم يعد أمامها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة سامية نزلت من إله السموات تمثلت فيه ، فيجب حفظها ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا ، ولقد وفت نسيبة بنت كعب تحت اللواء ، كما وفى ابنها وزوجها ما وفى غيرهم من الثابتين ، حتى كانت المعجزة الكبرى . معجزة إنقاذ الرسول

* * *

فى المدينة أقيمت الأحزان فى كل مكان ، لقد قتل الصفوة الأخيار من أصحاب رسول الله ، ولكن نسيبة لم تجزع ولم تهن بل كانت صابرة مصابرة على جرحها ، ولقد نادى منادى رسول الله إلى حمراء الأسد لتتبع المشركين فنفر المسلمون جميعاً إليه ، وأرادت أم عمارة نسيبة أن تخرج أيضاً فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم ، فمكث بعض نساء المسلمين حولها يكمدن الجراح حتى الصباح ، فلما رجع رسول الله من الحمراء ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنى يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ففرح بذلك .

* * *

آيات الحجاب تنزل على رسول الله فتتقبلها المسلمات راضيات قانعات ، ويصبح جهادهن ضم الذيول وقرار البيوت ، وهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب تشعل فى نفس ولديها آيات الجهاد ، فيشهدان المشاهد كلها مع رسول الله ، وحبيب ابنها الصغير ينشأ فى طاعة هذا الدين الأقدس ، ونسيبة — كما قلنا — راضية بجهادها فى بيتها ، وجهاد ولديها فى ميادين القتال .

ودعا رسول الله إلى الحج فخرجت نسيبة ، غير أن قريشاً منعت المسلمين من دخول الكعبة ، وكادت الحرب يشتعل أوارها ، وتحت الشجرة بايع المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت « بيعة الرضوان » وشهدتها نسيبة بنت كعب فما وهنت وما جزعت .

ولقد صاحب ابناها رسول الله فى كل غزواته ، حتى قضى .

* * *

اكتمل حبيب ابنها حياة وقوة وجمالا وجهاداً ، وبعثه المسلمون إلى مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة برسالة منهم ، فلم يرع مسيلمة حرمة الرسل بل قبض عليه وأوثقه وجعل يقول له : « أفتشهد أنى رسول الله » فيقول « لا أسمع » وجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات فى يده . لا يزيده على ذلك إذا ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به وصلى وإذ ذكر له مسيلمة قال لا أسمع .

وعلمت أم عمارة نسيبة بنت كعب باستشهاد ولدها على أيدى مسيلمة .

قتل حبيب عضواً عضواً وهو صابر على قضاء الله لا يذكر سوى الصلاة على رسول الله ، ألم يتعلم فى مدرستها ومن حياتها أن الجهاد غاية المسلمين ونهايته وأن الشهادة أمنيته ومطلبه ، لقد بعثت الإيمان فى نفسه فَمَلَكَ عليه كل شىء فما أحس بألم أو عذاب ، كانت روحه فوق الدنيا هائمة محلقة فوق عالم الآلام والأوصاب .

. . . علمت أم عمارة بكل هذا ، ولكن — ألم — تكن رضيت حياة المجاهدين ورضيت لأولادها هذه الحياة وصحابة رسول الله يمرون ببيت أم عمارة

فيحسون أن فى جوفه قلباً يحترق و إنها — صابرة كما كانت ، وقد نذرت لله أن تشهد مقتل مسيلمة وتشارك فيه .

وسار جيش خليفة رسول الله إلى بنى حنيفة ليقضى على دعوة مسيلمة الكذاب ، وخرج فيه عبد الله بن زيد ومعه أمه أم عمارة محجبة فى هودجها ، لقد نذرت لله أن ترى مقتل مسيلمة وتركها المسلمون لتخرج مع الجيش لتفى بنذرها . وكانت تبلغ من العمر أكثر من ستين عاماً ، فكان سنها الكبير وسابق جهادها وقتل ابنها على يد مسيلمة الكذاب ، كل هذا كان شفيعاً لها فى الخروج مع الجيش وعدم منع الصحابة لها من اصطحاب المجاهدين .

وقامت الحرب بين المسلمين والمشركين وانهزم المسلمون وفروا لايلوون من كل جانب ولكن قائدهم العظيم خالد بن الوليد مالبث أن صاح فيهم « وامحمداه » .

وارتفع اللواء ... لواء رسول الله مرة أخرى فأقبل الصحابة الخلص المهاجرون والأنصار ، وهنا استلت « أم عمارة » المجاهدة القديمة التى بلغت العمر الطويل استلت سيفاً وهجمت مع كوكبة من الأنصار فيها ابنها ، لقد ارتفع اللواء أمامها فذكرها بجهادها القديم وانقضت هذه الكوكبة من الأنصار على أعداء الله ، وأصاب أم عمارة اثنى عشر جرحاً ، فلم تبال .

أيها اللواء لقد ارتفعت أمامى مرة أخرى فلا حياة إلا تحت ظلك ولا سعادة إلا فى النضال تحت مبادئك ، وقطع ذراعها فلم تأبه بشيء حتى وصلت الكوكبة إلى مسيلمة الكذاب فانقض المسلمون عليه وفى مقدمتهم عبد الله ابنها يقتله بسيفه يثأر لدينه ولأخيه .

وعادت أم عمارة بذراع واحد وآلام هائلة لا يتصورها بشر ، غير أنها وفت نذرها وثأرت لابنها وحملت إلى بيتها ، وعلم خليفة رسول الله بإصابتها فذهب إليها وعادها .

* * *

ومرت الأعوام وأم عمارة فى خدرها تتذكر تلك الأعوام الماضيات ، والصحابة يعرفون لها مقامها ، هذا المقام الذى رفعها إليه رسول الله .

وأخيراً عادت النفس الراضية المطمئنة إلى ربها ، فنامت أم عمارة فى جنة البقيع مع الصديقين والشهداء وارتفع مقامها العلوى فى الأرض إلى مقام أعلى فى دار البقاء ، ولقد حاربت فى الأرض وثابرت تحت لواء الحق لتفوز بالبعث تحت اللواء .

* * *

وبقى عبد الله بن زيد يجاهد فى جميع المواقع ويطلب الشهادة ، ثم مرت على المسلمين السنون العجاف واغتصب الخلافة بنو أمية ، ثم ولى يزيد بن معاوية الخلافة ظلماً واقتداراً ، فلم يقبل صحابة رسول الله بيعة فاجر ، ورفضوا طاعته فبعث إليهم يزيد بمنافق فاجر « مسلم بن عقبة » وأمره أن يقضى على صحابة رسول الله بقتل رجالهم ويستبيح ديارهم .

واجتمع صحابة رسول الله على رأس جيش من أهل المدينة وفى مقدمتهم عبد الله ابن زيد ؛ والتحم الجيشان ، وشاء الله أن ينتصر مسلم ، وجالت خيول بنى أمية تقتل وتنهب وتعتدى على حرمات النساء ، وهنا طلب قوم من أهل المدينة من عبد الله أن يعلنهم بمكانته من رسول الله فقال :

— والله لا أقبل لهم أماناً ولا أبرح حتى أقتل (لا أفلح من ندم) .

وأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول :

— والله لا أبرح حتى أقتلك .

فقال له عبد الله — شر لك خير لى — وضربه بفأس فى يده . ورأى المسلمون وهو يسقط ميتاً ، نوراً ساطعاً فى السماء وكان عبد الله صائماً ذلك اليوم .

ومر مسلم بن عقبة بين الجرحى فأجهز عليهم . . . وبين القتلى فقال ساخراً « ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة » حتى إذا ما وصل إلى عبد الله ، أمر به فحزت رأسه .

فى جوار الله اجتمع آل نسيبة بنت كعب بعد فراق طويل ، وغداً فى جنة الله سيجتمعون مع رسول الله . . فطاب المقام وطاب الصاحب . .

٢ ـ تحت اللــــواء

أشراف بنى سلمة

« لقد بنوا دين الله على أكتافهم ومضوا قبل أن تقبل الدنيا على الإسلام ..
فأجرهم وقع عليك وحدك . . يا من خلقت الأرض والسماء . . لقد وعدتهم
فأسرعوا الى عهدك . . ومن أوفى بالعهد منك »

مرّت الأيام على عمرو بن الجموح بطيئة ثقيلة ، لقد كان شريف بنى سلمة ينتظر عودة حجيج يثرب وقد قصدوا مكة لزيارة بيت قريش وحضور موسمها ، وكان من بين هؤلاء الحجيج ولده معاذ وصديقه وصفيه عبد الله بن عمرو بن حرام . وعاد الركب أخيراً إلى يثرب . ولكم سُرّ عمرو بن الجموح بعودة ولده وصديقه وأسرع إليهما ليقابلهما ؛ ولكن ما لِابنه وصديقه ينأيان عنه ويبتعدان وما هذا الازورار فى وجهه كلما أقبل نحوهما . . وما لشباب الحى . . شباب بنى سلمة جميعاً يمرون به فلا يحادثونه ولا يحيونه . إنه فى الذروة بين رجالهم وفى الأوج بين ساداتهم . . طالما فكّر هو وعبد الله بن عمرو بن حرام صديقه فيما آمن به قومه من دين جديد ، نزل على شريف بنى عبد مناف وسيدها محمد بن عبد الله — طالما فكّرا فيما فيه من حقّ وقدسية ، ولكن عبادة آبائهما وأجدادهما كانت تبعدهما عن الضياء الذى أتى . .

لكن هذا الدين لم يمنع من قبلُ ولدَه معاذاً من زيارته والحدب عليه ، ولم يمنع فتيان بنى سلمة من تحيته والإقبال عليه . . وما لعبد الله بن عمرو بن حرام لا يقبل عليه ، وهو فيما يظن على دين الأوثان . .

لم يكن عمرو بن معاذ علم بعدُ أن المسلمِين من بنى سلمة — وعلى رأسهم كعب ابن مالك دعوا عبد الله بن عمرو بن حرام الى دين الله وأن يلتمس من نور النبوة ما يضيء جوانب نفسه . قالوا له :

— يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا و إنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار . . إنا ندعوك إلى الإسلام فأسلم . .

كانت النفس متفتحة للحقيقة الإلهية السامية فأسلمت . .

لم يكن عمرو بن معاذ يعلم كل هذا ، ولم يكن يعلم أن اليثربيين جميعاً قد بايعوا البيعة الكبرى ، وأن البراء بن معرور سيد بنى سلمة كلها كان أول من ضرب يده على يد الرسول مبايعاً ، وأنه أول من أجاب الرسول حين قال لهم :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأجاب البراء :

— نعم ، والذى بعثك بالحق لتمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحلقة وأهل الحروب ورثناها كابراً عن كابر .

بايع عبد الله بن عمرو بن حرام ، وكان نقيب قومه ، و بايع معاذ بن عمرو ابن الجموح ، وبايع غيره من المسلمين .

وأتوا جميعاً وفى قلوبهم من الإيمان ما يزلزل الدنيا وما فيها ومن كراهية لعباد الأوثان ما جعل الواحد منهم يعادى أباه وأهله و ينكر عشيرته وخلانه

عرف عمرو بن الجموح كل هذا آخر الأمر . . فعاد إلى بيته يتلمس الهدوء فى عبادة مناة الصنم الذى أقامه فى بناء البيت — على عادة أشراف العرب — و يستمد منه القربى والزلفى ، ودار حواليه فى بطء يحدق فيه بقسوة شديدة . .

وأقبل الليل فمضى عمرو إلى فراشه . . وأدلج فتيان بنى سلمة — معاذ بن جبل ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح وآخرون معهم وحملوه ثم طرحوه فى بعض الحفر التى يقضى فيها أهل الحى حاجاتهم ، ثم مضوا . .

وفى الصباح مضى عمرو إلى « مناة » فلم يجده فصاح : « و يلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة » ثم قام يتلمسه فوجده فى حفرة قذرة منكساً على رأسه فحمله وغسله وطهره وطيبه ثم وقف فى الحى يقول مخاطباً الصنم : « أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته » .

وفى اليوم التالى عدوا عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه فيغسله و يطهره و يطيبه . . . وتكرر الأمر ، و يترصد عمرو بن الجموح لهم . . . ولكن النوم يغلبه كل ليلة فيعاود الفتيان عملهم . فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً ، فغسله وطيبه وطهره ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال له :

— إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . ! استيقظ ضمير الرجل أخيرا . . . وأدرك أن هذا الصنم لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يمكنه أن يرد عن نفسه عادية الناس .

— أفٍ له . . . إن لم يمنع نفسه الليلة . . .

. . . نام عمرو ، فغدا فتيان بنى سلمة على الصنم ، فأخذوا السيف من عنقه ثم أتوا بكلب ميت فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة ، فيها عذر من عذر الناس ، وغدا عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت ، فوقف أمامه محتقراً . وفى تلك اللحظة أقبل عليه من أسلم من قومه ودعوه إلى دين الله ، فأجاب متوجهاً نحو الصنم :

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن

أفٍ لملقاك إلهاً مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمد لله العلىّ ذى المنن ... الواهب الرزّاق ديان الدين

هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن

بأحمد الهادى النبىّ المرتهن

وأسلم أولاد عمرو بن الجموح جميعا ، وعاد عبد الله بن عمرو بن حرام إلى صديقه يتآخيان فى الله وفى ظل دينه ، حتى دعا الله المسلمين إلى القتال ، وخرج عبد الله ابن عمرو بن حرام كما خرج أولاد عمرو بن الجموح خلاد ومعاذ وأبو أيمن ومعوذ . وأراد عمرو أن يخرج فمنعه أولاده بأمر رسول الله . لقد كان فى قدمه عرج شديد يمنعه من القتال ، وكم كان يؤلم هذه النفس الكبيرة أن يحول بينها و بين

الجهاد لأجل دين الله حائل جسمانى ، كم تعطشت إلى جنة عرضها السموات والأرض ، كم أرادت أن تفوز بنعيمها السرمدي . . . ولـكن أراد الرسول ألا أذهب ، إذن فلأبق .

ومرت بدر وعاد المسلمون وأكاليل الغار فوق رءوسهم ، ولـكن هناك منهم من ذهب ، تحمله الملائـكة فى رياض الجنان ، هؤلاء هم الشهداء ، أولئك الخالدون الذين يرثون الفردوس ونعيمه . . . أفكار كان يحيا فيها عمرو ويُسِرُّ بها إلى صديقه عبد الله بن عمرو بن حرام . . . إيه يا أبناء الدنيا ، أنتم تطلبون المـال والجاه ، وهذان كان لهم الغاية منهما فما طلبوهما ، وإنما أرادا العيش المقيم فى ديار الخالدين .

* * *

أقبلت أُحد ففاضت النفس الـكبيرة ، نفس عمرو بن الجموح ضياءً ونوراً . . . ومضى لبنيه قائلا :

— منعتمونى الخروج إلى بدر فلا تمنعونى الخروج إلى الله .

— إن الله قد عذرك .

فمضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، ووالله إنى لأرجو أن أطأ بعَرَجَتى هذه فى الجنة .

فقال له الرسول : أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك .

ثم قال لبنيه : لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة . . . فأخذ عمرو سلاحه ومضى قائلا : اللهم ارزقنى الشهادة ، ولا تردنى إلى أهلى خائباً . . . ومضى هو وصديقه عبد الله بن عمرو وأولاده مع كتيبة الله .

ونادى عبد الله بن عمرو ابنه جابر قبل أن يخرج إلى القتال وقال : « إنى أرجو أن أكون أول من يصاب غداً — فأوصيك ببنات عبد الله خيرا . »

سار المسلمون حتى وصلوا إلى الشوط وهناك نافق عبد الله بن أبى بن سلول

زعيم المنافقين فى المدينة ورجع بثلث الناس من الضالين وأهل الريب ، وآلم عبد الله ابن عمرو بن حرام هذا الموقف فى تلك الساعة الحرجة من تاريخ الدعوة الإسلامية فاتبعهم يقول لهم :

— ياقوم أذكركم الله أن لاتخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوكم .

فرد المنافقون : « لونعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن نرى أنه لا يكون قتال . » فناشدهم الله وذكرهم بالبعث واليوم الآخر فاستعصوا عليه وأبو إلا الانصراف فقال : « أبعدكم الله فسيغنى الله عز وجل عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم » وعاد إلى جيش المسلمين .

* * *

بدأ الصراع المخيف بين الجيشين وتخطى عبد الله بن عمر بن حرام الصفوف حتى وصل إلى قلب جيش المشركين وهو يطعن ويصول حتى تناولته الرماح فسقط قتيلا وانتصر المسلمون ثم انهزموا وولوا الأدبار ولم يثبت إلا من عصم الله .

وارتفع اللواء . . لواء رسول الله . . والملائكة تنادى من سمواتها « يامن غنمتم الدنيا ومن فيها . مقامكم اليوم فأقبلوا » وسمع عمرو بن الجموح النداء . . فأقبل إنه يرجو الخلود . . وهذا طريقه فحمل هو وابنه خلاد على المشركين ، وسقط هو وابنه بجانب صديقه عبد الله بن عمرو بن حرام واختلط دماؤهما . . لقد تحابا فى الحياة ، واجتمعا فى الممات . . ومر بهما الرسول بعد الموقعة فرآهما يتوسدان الثرى متجاورين وبجانبهما خلاد فقال : ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا . . فى قبر واحد .

ثم يحدق فى وجه عمرو بن الجموح . . وتصمت الكائنات وتهدأ إن رسول الله يكلم الوحى . . ثم حين يذهب عنه يقول : « والذى نفسى بيده لقد رأيت عمرو بن الجموح يطأ فى الجنة بعرجته »

ثم وقف أمام عبد الله بن عمرو بن حرام وأقبل جابر بن عبد الله على أبيه وهو مسجى فكشف عن وجهه وجعل يقبله والصحابة تنهاه ، . . والنبى صلوات الله عليه

صامت هادىء ، وأقبلت فاطمة بنت عمرو تبكى أخاها عبـد الله فقال النبى صلوات الله عليه « فبكينى أولا فبكينى . . مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه . » خ ٢٣ / ٣

لقد ناما فى أرض أحد فى قبر واحد ووقف النبى صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا شهداء أحد جميعا : « زملوهم بجراحهم فإنى أنا الشهيد عليكم مامن مسلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دما — اللون لون الزعفران والريح ريح المسك . »

إيه يا يوم البعث . . . يا يوم العرض العظيم ، يوم تزدان بكمال البشر . . . يوم تطلع عليك تلك الوجوه التى أخضعت الدنيا وشهواتها ثم لم تأخذ منها شيئاً .

لقد بنوا دين الله على أكتافهم ومضوا قبل أن تقبل الدنيا على الإسلام فأجرهم وقع عليك وحدهم ، يا من خلقت الدنيا والسماء لقد وعدتهم فأسرعوا إلى عهدك ومن أوفى بالعهد منك . . .

٣ ـ تحت اللواء...

١ ـ سعد بن الربيع

هنا عبرة الدنيا التي لا تنقضى ، وحكمة الدهر التي لا تزول . هذا رجل آمن وأسلم فكان قلبه وقودا للحب والإيثار يقدمهما لسيد الأنبياء .

٢ ـ أنس بن النضر

مات أنس بن النضر ولكن رسول الله قد عاش ، ويالها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة حين تطلع من عالمها الأخروى على الأرض ... فترى رسالة الله ما أضاعها الله بل حفظها ورعاها، وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا وسادت العالمين .

ـ ١ ـ

سعد بن الربيع

ثارت الحرب بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ، والتحم أشراف المدينة فى حرب طاحنة ضروس . وكان سعد بن الربيع سيد بنى الحارث (حى من أحياء الخزرج) يصلى نيران تلك الحروب التى تذهب بقومه العرب ، بينما اليهود ثعالب الجزيرة يزدادون قوة ومنعة . ويسيطرون على مصير يثرب فى دهاء وخبث ، ووضعت الحرب أوزارها أخيراً ، ولكن بعد أن أهلكت الحرث والنسل ، وتركت الحيين جميعاً محطمى القوى ، وعادت الحياة إلى يثرب مرة ثانية هادئة لا يعكر صفوها إلا هؤلاء اليهود يحاولون فى كل آن إثارة البغضاء مرة أخرى بين الحيين . وهؤلاء العرب سرعان ما تثور بينهم الأحقاد والضغن . ما أخف تلك الأحلام الجاهلية التى لا ضابط لها ولا رادع ، ويسعى سعد بن الربيع إلى تسكين الفتن والأحقاد ، ولكم أبغض اليهود هذا الهدوء وهذا السكون الذى يسود يثرب ولكم غاظهم اجتماع الحيين .

ويمرون على الأوس والخزرج وفى قلوبهم مراجل من الغيظ تغلى ، ويمر أحبارهم فيقولون لأهل يثرب : « لقد أظل زمان نبي يبعث ، نجد وصفه فى كتابنا نقتلكم به » ويصبر الأوس والخزرج صبرا جميلا ، ويصبر سعد بن الربيع . . ولكن ما هذا القلق

الذى يتردد فى أعماق نفسه نحو هذه الحياة ، نحو جوهر هذا الوجود وحقيقته ، قلق يأخذ على هذا العقل المتزن الكبير كل مأخذ ، ويجعل أيامه جحيما نفسيا لا يطاق كان له من المال الغاية ومن شرف أسرته ومقامها الكبير النفوذ والسطوة ، ومن العلم نهايته بين العرب — فقد كان يكتب ويقرأ والكتابة كانت نادرة فى العرب .

لقد أطعم الجائع ، لقد كسا الغادى والرائح ، لقد ملأ يثرب ذكراً عاطراً ، لم يكذب مرة ولم ينافق ، آثر الناس على نفسه فى كل مافعل ، وعرف أهل يثرب إيثاره فكان له فى أنفسهم مقام وأى مقام . ولكن كل هذا لم يهدئ من هذا القلق الذى يهزه هزاً . هذا القلق الذى كان يشعره أن هناك شيئاً فى هذا الوجود لم يعرفه بعد .

أيها الليل الطويل . . ليل ظلمات النفس ألا تنجلى ، أيها الصبح . . صبح اليقين ألا تقبل . .

* * *

. . . وأقبل صبح اليقين أخيراً . .

هبت نسماته من الجنوب . . هادئة تحمل فلسفة الوجود ، لقد ظهر المبعوث بجوار البيت العتيق ، وهؤلاء اليثربيون يسبقون إليه قبل أن يسبق إليه اليهود فوا صباح هؤلاء . . لقد ظهر المبعوث من رب السماء يحدثهم عن وجودنا وعن خلقنا وعن المصير .

فيا رواد الحقيقة هذا منبع الحقيقة . . ويا طلاب اليقين ، بدا اليقين أروع وأثبت ما يكون . وآمن سعد بن الربيع وكان إسلامه وإيمانه للإسلام نصراً عظيما لقد بدأ سعد بن الربيع الشريف الإيثارى فى الجاهلية يضرب فى الإسلام أسمى معانى الإيثار .

* * *

هدأت النفس الكبيرة ، ورأت فى كتاب الله ما تصبو إليه من هدوء نفسى ملأ

جوانحها ، ودعى الأنصار إلى بيعة الرسول وخرج سعد مع قومه ، وفى ليلة العقبة الكبرى كان نقيب قومه .

وهاجر المسلمون من قريش إلى المدينة وهاجر الرسول الكريم ، وكان لابد من إقامة الدولة الجديدة على أساس دعوة الله ، وأهم أساس لهذه الدعوة الأخوة والإيثار فآخى سيد الأنبياء بين المهاجرين والأنصار ، هذا الإخاء الرائع الذى امتاز به هؤلاء الذين أخضعوا الدنيا وسجد لهم قياصرتها وأقيالها .

وآثر الأنصار المهاجرين على أنفسهم ففسحوا لهم دورهم ومالهم ثم رفعوا السيوف والموت فوق رءوسهم يوم طلب منهم التضحية والفداء ، ثم ألقوا بأنفسهم فى مقدمة الصفوف طالبين الموت ، مؤثرين إخوانهم المهاجرين بالحياة . . . ولكم اختلطت دماؤهم مع دماء المهاجرين وارتبطت بينهم العهود حتى كانوا قلباً واحداً .

هذا رسول الله صلوات الله عليه ، يؤاخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ولقد أسرع الشريف الإيثارى إلى عبد الرحمن بن عوف يقول له :

— لى امرأتان وأنت أخى فى الله لا امرأة لك فأنزل عن إحداهما فتزوجها .

فرفض عبد الرحمن بن عوف قائلا : لا والله . . فعاد سعد يقول له :

— هلم إلى حديقتى أشاطركها .

— لا ، بارك الله لك فى أهلك ومالك .

فألح سعد بن الربيع . . وعبد الرحمن بن عوف يصر على الرفض طالباً منهم أن يدلوه على سوق المدينة فقد كان تاجراً من أغنى تجار قريش ، ولكن قريشاً عدت على ماله حين خرج مهاجراً إلى الله ورسوله ، غير أنه يستطيع أن يزاول التجارة فى يثرب ؛ وأثرى حقاً عبدالرحمن بن عوف من تجارته بعد أن وجد فى جوار سعد مقاما كريماً و إيثاراً مطلقاً .

* * *

« أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير » ٢٢/٣٩. قاتل سعد بن الربيع فى بدر وأبلى أحسن البلاء .

وفى أُحُد . . حدث ماحدث من عصيان الرماة لأمر رسول الله وتركهم لمواقعهم فانقلب النصر هزيمة وخذلانا وأخذ القرشيون يستأصلون شأفة المسلمين ، والمسلمون يولون الأدبار ، ويلقون أسلحتهم وعتادهم .

وارتفع اللواء . لواء رسول الله خفاقاً فوق الأعناق يذكر النفوس التى عاهدت ينادى أهل العقبة الكبرى ونقباءها . . يردد لهم أناشيد الفداء .

وسمع سعد بن الربيع فلم يهن ولم يتردد — بل صال صولة الضرغام ينازل أبطال قريش ، تخمشه السيوف فلا يسقط — تتناوله الرماح وتكثر عليه الجراح فلا يوهنه شيء أبداً ، حتى سقط وفيه بقية من حياة — أخيراً بعد أن وفى فأحسن الوفاء .

* * *

عادت قريش إلى مكة ظافرة منتصرة ورسول الله يسأل الصحابة أول ما يسأل : « من رجل ينظر إلى فعل سعد بن الربيع أفى الأحياء أم فى الأموات » فقال رجل من الأنصار : « أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد » .

فخرج الصحابى فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق ، فقال له سعد :

— ما شأنك ؟ .

— إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات .

— أنا فى الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام ، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . . وأبلغ قومك عنى السلام . وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف » .

ثم مضى . . مضى السيد الإيثارى إلى أرض البقاء . . لقد آثر السيد الإيثارى الرسول فى الحياة وآثره فى الممات . وأنشدت له كائنات السماء أناشيد الخلود « أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ٢٣ / ١١ و ١٢

هنا عبرة الدنيا التى لا تنقضى ، وحكمة الدهر التى لا تزول ، هذا رجل آمن وأسلم . . فكان قلبه وقوداً للحب والإيثار يقدمهما لسيد الأنبياء .

هذا ذكره فى السماء فما هو ذكره فى الأرض ، دخل رجل على أبى بكر الصديق فرأى طفلة صغيرة يحملها أبو بكر يدللها و يقبلها فقال له رجل :

— من هذه ؟ .

— هذه بنت رجل خير منى — سعد بن الربيع كان من النقباء يوم العقبة وشهد بدراً واستشهد يوم أحد .

— ٢ —

أنس بن النضر

لقد ارتفع اللواء .. لواء رسول الله . إن الحقيقة تكاد تنهار وتخبو إن تركتم هذا اللواء يا صحابة الرسول ينكس اليوم فى الأرض . وأنس بن النضر قد استل سيفه ووقف يحدق فى الفضاء . . تذكر أنه غاب عن بدر وأنه ذهب بعدها إلى رسول الله فقال له : — يارسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع . تذكر أنس كل هذا والمسلمون ينكشفون ويهربون فصاح بأعلى صوته : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد ابن معاذ فقال له : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس بن مالك : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

وفى تلك اللحظة هجم على صفوف المشركين واستعرت الحرب وصارت هولا مقيما وأنس فى وسط الصفوف كالعلم الأشم . وصاح صائح من قريش : قتل محمد .. فلم يهن أنس ولم يصمت عن قتال حتى مر بعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله

فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال : مايجلسكم ؟ . قالوا : قتل رسول الله . فصاح فيهم : فماذا تصنعون بالحياة بعده فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم استقبل الكفار . . مات رسول الله فما الحياة بعد رسول الله إلا غرور ووهم . . يا لها من حياة مليئة بالقاذورات والأرجاس تلك الحياة التى يتغلب فيها عباد الشهوات والشيطان على كتيبة الإيمان والطهر .

مات رسول الله فلأكن أول الساعين إليه وأول العاملين تحت لوائه فى الآخرة . . وسقط . . سقط أخيراً أنس بن النضر وفى جسمه ثمانون ضربة فما عرفته أخته إلا من بنانه . مات أنس بن النضر ولكن رسول الله قد عاش ، ويالها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة حين تطلع من عالمها الأخروى على الأرض . . فترى رسالة الله ما أضاعها بل حفظها ورعاها وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا وسادت العالمين .

وهذه هى الغاية التى مات لأجلها تحت لواء رسول الله أنس بن النضر .

٤ ــ تحت اللواء ...

١ ـــ صور من أهل أحد

« ياأهل الكون العلوى : أطلوا من عليائكم على الأرض لقد ارتفع اللواء . . لواء رسول الله . وما بقى حوله إلا قليل » .

ــ ١ ــ

. . وعلت فى الكون أنغام حزينة ــ لم يسمعها الغافلون ــ تردد يا أهل الكون العلوى . . سلام على الدنيا ومن فيها . . لقد شغل كمالها وذادة الحق فيها بشهوات أنفسهم عن حق ما كان أعلاه فى أعينهم وأيقنه فى صدورهم . . سيطرت عليهم روح أرضية ليس فيها إلا خداع وغرور . . يا أهل الكون العلوى . . لقد فر أصحاب سيد الأكوان من جبل أحد ، بعد أن ضربوا له المواثيق والعهود . . إنه يتحمل الآن بقوة نفسه ، وهى فوق قوة العالم كله نتيجة ماوقع منهم ، ثم لا يغضب ولايثور بل يطلب لهم من رب الأكوان جميعا الأيد فى الدنيا والمغفرة فى الأخرى . . ياأهل الكون العلوى . . أطلوا من عليائكم على الأرض ، لقد ارتفع اللواء . . لواء رسول الله وما بقى حوله إلا قليل . .

* * *

وسمع « خيثمة » سيد بنى عمرو بن عوف تلك الأنغام العلوية تبعث فى نفسه ألوان الألم المحض ، وتثير صورا من الماضى القريب . . أين عهود هؤلاء الذين أشهدوا الله أنهم مانعوه ما منعوا منه نساءهم وأبناءهم لقد فرّ الكثير منهم اليوم بين مهاجر وأنصارى ولكن ما زال حول الرسول بقية تنذب عنه . واقترب خيثمة يفرق الصفوف ويدفع دفاع الكماة الأشاوس ، وهو يفكر . . ألم يسبقنى ابنى « سعد بن خيثمة » فى هذا الموقف من بدر . . لقد كان سعد سيد قومه ونقيبهم فى يوم العقبة

وقد وفى ما كان على قيد الحياة . إنه ليذكر كل هذا ، ويذكر أنه قال لابنه يوم بدر « لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج وأقم أنت من نسائنا » فأبى سعد وقال له : « لو كان غير الجنة لآثرتك به إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا » فاستهما فخرج سعد وأبلى يوم بدر أحسن البلاء ثم قتل . . قد حقق الله له ما أمل وارتجى . . إن خيثمة ليذكر كل هذا ويذكر أنه لم يحزن على سعد ، إلا أنه فى جوار ربه وفى رضوان من الله أكبر . وأحب خيثمة أن يلحق بابنه وأن يفوز بما فاز به ، فلما طلب الرسول من الناس المشورة — وقف خيثمة فقال : « يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاؤنا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات ويصيبوا أطرافنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا وتجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن قرانا وعسى الله أن يظفرنا بهم — فتلك عادة الله عندنا أو يكون الأخرى فهى الشهادة .

لقد أخطأتنى وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً . لقد بلغ من حرصى أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد كنت على الشهادة حريصاً — وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً — وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورق عظمى ، وأحب لقاء ربى — فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة » فدعا له الرسول بذلك .

تذكر خيثمة كل هذا . . وترددت دعوة الرسول فى أذنه كأنها مازالت ترن بعد وفى تلك اللحظة تناولته الرماح فسقط شهيداً .

— ٢ —

وفى وسط المعمعان وأطياف الهزيمة تملأ قلوب المسلمين . . . والمشركون حول الرسول . . ارتفع اللواء . . لواء رسول الله خفاقا فوق الأعناق ، ونظر إليه زياد ابن السكن بن رافع فخال أنه يملأ الدنيا جميعها ، فاقترب منه ، ومرت أمامه فى تلك اللحظة صورة ابنه عمـارة بن زياد بن السكن — وقد مات فى بدر شهيداً ورفعته الملائـكة إلى العلا ، يدعوه إلى الوفاء وكانت البيعة الـكبرى بايعها الخالصون من صحابة الرسول ومنجل الموت يقط رقابهم ! بايعوا بيعة الموت . وكانوا ثلاثين من أئمة الأنصار والمهاجرين وفيهم عمارة ، وأقبل المشركون من كل شعب من شعاب الجبل فصاح المبايعون بصوت واحد وقد توجهوا إلى الرسول جميعاً . . وجهى دون وجهك ونفسى دون نفسك والسلام عليـكم غير مودع . » وانقضوا على المشركين انقضاضاً ولـكنهم كانوا قطرة فى بحر عجاج . . فصاح الرسول : « أيها الناس من رجل يشرى نفسه » ؟ فقام سبعة من الأنصار وعلى رأسهم زياد بن السكن فأحاطوا بسيد الأنبياء إحاطة السوار بالمعصم وقاتلوا تحت لواء رسول الله وتساقطوا واحداً بعد واحد . وترس زياد بنفسه دون الرسول يتلقى الرماح والنبل بجسده حتى خلصت إليه الجراح ومزقته السيوف والنبال ، فلم يبق فى جسده موضع إلا وقد أصيب . . ونام . . نام تحت قدمى الرسول والرسول يوسده ويودعه إلى حيث المقام الآمن . . . إلى حيث يلحق بالشهداء والصديقين من قومه .

لقد اجتمع خيثمة بأبيه سعد واجتمع زياد بابنه عمارة . . والله والملائكة يشهدون بأنهم كانوا الأوفياء ، أزالوا أطماع الدنيا فى قرارة نفوسهم فتساوى عندهم الحياة والموت ! فلم يرعهم الموت يوم طالب منهم الفداء ، بل أقبلوا بلا تردد ولا إحجام ، فتركوا الإسلام بعدهم صرحا مشيداً ، وعلم أعداء الإسـلام حقيقة دينهم ، فأرادوا القضاء عليه ، فزينوا للناس الشهوات وحبها فملأت نفوسهم ولم يعد فيها إلا هى ، وأى مجد يقام على شهوات النفس .

— ٣ —

وامتدت صفحة الصحراء صفراء لانهاية لما تحاول العين الإحاطة بها فلاتستطيع وسمع صوت رجلين يرجزان من بعيد يسوقان أمامهما قطيعا من الغنم ، وكان هذان الرجلان هما وهب بن قابوس المزنى وابن أخيه الحارث بن عقبة يسيران بغنم لهما من جبل مزينة حتى وصلا إلى المدينة فوجدا بها بعض من تخلف عن رسول الله فسألا : أين الناس . . . فأجابوهما بأحد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين فقالا : نسأل أثراً بعد عين ، ثم خرجا حتى أتيا النبي صلى اله عليه وسلم بأحد . . فيجدان القوم يقتتلون ، والدولة لرسول الله وأصحابه فأغاروا مع المسلمين ، ولكن مالبث الكفار أن هجموا من الجبل واختلط المسلمون بعضهم ببعض وثبت وهب وابن أخيه وقاتلا قتالا شديداً .

وهجمت فرقة من أشداء أعداء المسلمين على رسول الله فقال الرسول « من لهذه الفرقة » ؟ فقال وهب : « أنا يا رسول الله » وقام ورماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع ، فهجمت فرقة من المشركين فقال الرسول « من لهذه الكتيبة » فقال المزنى « أنا يا رسول الله » فقام فذبها بالسيف حتى ولوا ثم رجع المزنى — فطلعت كتيبة أخرى فقال « من يقوم لهؤلاء » فقال المزنى « أنا يا رسول الله » فقال « قم وأبشر بالجنة » فقام المزنى مسروراً يقول « والله لا أقيل ولا أستقيل » ثم انقض على المشركين يضربهم بالسيف ورسول الله ينظر إليه قائلا « اللهم أرحمه .. اللهم أرحمه » وهو يدور حولهم ويضربهم بالسيف — ولكنهم أحدقوا به أخيراً حتى اشتملت عليهم أسيافهم ورماحهم فقتلوه فوجدوا به يومئذ عشرين طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثل به أقبح تمثيل يومئذ ثم قام ابن أخيه فقاتل كما قاتل وهب حتى قتل .

ووقف رسول الله على قدميه وكان مجروحا والقيام يشق عليه ، ونظر إلى جثة وهب : « رضى الله عنك فإنى عنك راض » وهذا عمر بن الخطاب يقول « إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليها المزنى . »

— ٤ —

كان فتى قريش جمالا ووضاءة ، لم يعرف من الحياة إلا نعيمها وترفها حتى أسماه القرشيون شماسا لوضاءته حتى غلب على اسمه فإذا ما نادى الوحى من أعلى السماء محمداً استجاب الشريف القرشى « شماس بن عثمان » لرسول الله وتحمل معه ما تحمل حتى أذن له الرسول بالهجرة إلى الحبشة فهاجر فى الهجرة الثانية غير آبه بأهله ولا بوطنه إنما حاملوا لواء العقيدة هم الوقود الذى يشتعل لأجلها ، ثم عاد من الحبشة وهاجر مع من هاجر إلى يثرب ، ونزل فى يثرب على مبشر بن المنذر ثم آخى الرسول بينه وبين حنظلة بن أبى عامر .

واشتعلت الحرب بين المسلمين والمشركين وفى المشركين أهل شماس وعشيرته وخلانه ولكن ما كان المسلم الحق أن يهادن فى الله قوماً أخرجوا النبى وآذوه فى نفسه وفى دينه حتى ولو كانوا أهله وعشيرته ، خرج شماس فى بدر فأذاق المشركين الويل وقتل منهم من كانوا أخلص خلانه وصحبه ، وفى أُحُد . . ارتفع اللواء ، لواء رسول الله وفر من فر . . والرسول يدعوهم فى أخرامهم ، ولكن شماساً ثبت ثبوت الأطواد يقاتل يميناً وشمالا والرسول لا يرمى ببصره إلا إذا رآه يقاتل فى كل مكان فقال صلوات الله عليه : « ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهاً فى الجنة » ثم غشى على رسول الله وسقط من سقط من الصحابة قتيلا — فأقبل شماس وترس بنفسه دون رسول الله والسيوف تأكله أكلا والنبل يمزق جسده تمزيقاً وهو لا يصيح ولا يئن ولا يتحرك ، بل يتقبل كل هذا بقوة لا تلين حتى سقط ، وحمل إلى المدينة وبه رمق ومات بعد يوم وليلة فى سن الرابعة والثلاثين .

إيه ... يا من ضربتم للناس أرفع المثل ، انظروا بعدكم إلى الناس كم أقبلوا بعدكم على الدنيا ففتنتهم منها شهوتان : شهوة البطن وشهوة الفرج ، تنكبوا طريقكم فعاشوا كالبهائم والأنعام .

* * *

وصاح النغم الحزين يردد : « يا أهل الكون العلوى أطلوا من عليائكم على الأرض . . لقد ارتفع اللواء . . لواء رسول الله وما بقى حوله إلا قليل » .

٥ — تحت اللواء . . .

٢ — صور من أهل أحـــد

« إن الفداء الحق — فداء من أقبلت عليه الحياة وملكها ، لافداء من أدبرت عنه وخرجت من يده فضحى وفدى — أما الأولون فهم الأموات الخالدون وأما الآخرون فهم الأموات أبداً — ومن ذلك الصنف الأول كان أهل أحد » .

— ١ —

بعد التولية

ستة من أهل يثرب يسيرون فى بطحاء مكة لايفكرون إلا فى تجارتهم وفى إقامة علائق ود مع سدنة البيت العتيق — بيت العرب جميعاً — لا يفكرون أنه بعد لحظات سيكونون الرعيل الأول للأنصار . . خير أمة فى الوجود . . وأن يثرب بلدهم ستصبح خالدة ما بقيت الدنيا ، وأنه سينام فى أرضها سيد الأنبياء — فتصبح أذكى الرياض . . يقبل الناس عليها من كل فج فيقفون أمام القبر المطهر مناجين الروح التى طالما أشرقت على الدنيا ذراتها وستشرق أبد الآبدين فتنفك نفوسهم . . التى ملئت بأدران الدنيا وقذارتها عن جسومهم لكى تتصل قليلا بموطن النور الأعظم فتتخلص من شرور البشر وآثامهم . ياله من نور يُفنى كل شىء ولا يَفنى — فتنقص الكائنات جميعاً من شمس وكواكب ونجوم ، غير هذا النور .. ثبت أبداً وسيثبت .

* * *

التقى رسول الله باليثربيين الستة . . . ودعاهم إلى عبادة الواحد الأحد فآمنوا جميعاً — وكان من بين هؤلاء الستة العباس بن عبادة بن فضلة الخزرجى . . آمن اليثربيون وبايعوا الرسول البيعة الأولى . وعاد العباس كما عاد أصحابه إلى يثرب ينشرون دين الله حتى انتشر الإسلام فى المدينة .

وخرج العباس فى العام الذى يليه — ولما توافى الأنصار ليلا لبيعة الرسول بيعة العقبة الكبرى كان العباس فى مقدمتهم . فإذا ما هموا بالبيعة صاح العباس فيهم : « يامعشر الخزرج — هل تدرون علام تبايعون رسول الله ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود . فإن كنتم ترون أنها إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن — فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة — وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة » .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟. قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ؛ فبسط يده ، فبايعوه .

هذا صوت فى الظلام يصيح فى قريش ينبئهم بالأمر . فيقف العباس و يقول :

— يا رسول الله إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا . فيقول النبى : لم نؤمر بذلك . ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

* * *

صورة من صور عظماء الرجال لم تر الدنيا لها مثيلا . . تفتح نفس نحو الحق فلا يناديها الحق إلا وأقبلت . . ورسوخ إيمان تتحرك الجبال المحيطة بالبيت الحرام ولا تتحرك ، وسمو على الناس لا يدانيه سمو ، وفناء فى دين الله يجعله لا يرهب قريشاً بأكملها وهم قلة مستضعفة ، وصرامة فى الحق عرفها له الناس فسودوه فى الجاهلية والإسلام ، تلك صورة العباس بن عبادة وهو يصيح : « يا رسول الله إن شئت لنميلن عليهم غداً بأسيافنا » .

* * *

كيف يصبر على بعد المزار من عرف النور ؟ كيف يرضى الابتعاد عن موطن الحق من عرف الحق ؟ لم يصبر ولم يرض العباس بن عبادة . . فرحل بعد قليل

من عودته من مكة إلى الرسول ثانية فى مكة . . هاجر العباس من المدينة إلى مكة وأقام بها مع رسول الله يغترف من الضياء ما يغترف ، ويتحمل من عنت المشركين ما يتحمل — حتى أذن الله لأصحابه بالهجرة — فهاجر العباس ثانية من مكة إلى المدينة .. فكان مهاجراً أنصارياً . وآخى الرسول بينه و بين عثمان بن مظعون .

ودعا داعى الجهاد ، ولم يخرج العباس مع الرسول فى بدر ، لم يحسب أنه يلقى قتالا . واشتبك المسلمون فى العام الثانى مع الـكفار فى أُحد ، وتولى عن الرسول صحبه . وارتفع اللواء . . لواء رسول الله .

و بلغ المنهزمون بنى حارثة بالقرب من المدينة . . وهنـاك تذكروا عُهودهم ومواثيقهم . . تذكروا هذا اللواء الذى يرتفع فوق هام الرّجال ، فلا يذود عنه إلا الأقلون فرجعوا سراعا ، وكان أول من أتى بعد التولية « قيس بن محرث » مع طائفة من الأنصار . فصادفوا المشركين فى كرتهم فدخل قيس فى حومتهم فما أفلت منه هو وأصحابه رجل . وقد قاتل قيس بن محرث وامتنع منهم بسيف حتى قتل منهم نفراً — ولـكن رماحهم تكاثرت عليه فقتلوه — و وجد به أر بعة عشرة طعنة قد جافته وعشر ضر بات فى يده .

واأسفاه على الأوفياء الذين ولوا . أنتم يابنى الموت تخشون الموت ولـكل منا ضجعة . ولوا يوم التقى الجمعان ، ولـكنهم عادوا ولم يرتد الطرف . وعباس بن عبادة ابن فضلة فى مقدمتهم وخاضوا المعمعان . وصاح عباس : « يا معشر المسلمين ، الله ونبيكم ، هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم فوعدكم النصر ما صبرتم » ثم نزع مغفره عن رأسه وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد : هل لك فى درعى ومغفرى ؟

فقال خارجة : لا ، أنا أريد الذى تريد .

إنهما يريدان الموت و يتسابقان فيه . فكان لهما فى تلك اللحظة غاية . وهو الذى يفر اليوم منه الجبناء . ويتناسون أنه الكأس المحتوم ، ولو تذكروا هذا لاعتدل ميزان الدنيا ولما اضطرب، ولـكنهم غفلوا عنه نهاية أمرهم ولم يتبينوا إلا يوم أن تأتى .

وحينئذ يرجون العيش لحظة ليعملوا غير ما كانوا يعملون . . أبداً إنهم لا يرجعون .

وصاح عباس : ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ومنا عين تطرف ؟

فقال خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة .

ثم قتل سفيان بن عبد شمس السلمى عباساً بعد أن تكاثرت عليه الجراح ، وقد ضربه عباس ضربتين قبل أن يموت فجرحه جرحين عظيمين — وأخذت خارجة الرماح فجرح بضعة عشر جرحاً فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق فأجهز عليه — ومثل به — وقال : هذا ممن أغرى بأبى يوم بدر ، الآن شفيت نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد — قتلت ابن قوقل (أى عباس بن عبادة) وقتلت أبى زهير (أى خارجة) وابن أياس (أى أياس بن أوس ، استشهد يومئذ أيضاً) . وقاتل ذكوان بن عبد قيس حتى قتل بعد أن أصاب من المشركين كثيراً ، وغسلوا هزيمة أصحاب الرسول بدمائهم . وأدخلهم الله جنات يمرحون فيها جزاء بما فعلوا وصبروا .

— ٢ —

غسيل الملائكة

زعيمان من أكبر زعماء يثرب ، وثريان من أكبر ثراتها هما عبد الله بن أبى بن سلول زعيم الخزرج وأبو عامر بن صيفى زعيم الأوس سلبهما الإسلام جاههما الجاهلى الوثنى . أما أولهما فقد أقام فى المدينة منافقا يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، وأما ثانيهما فقد لجت به العداوة والبغضاء فخرج إلى قريش مستنفرا على رسول الله ، وكان يلقب فى الجاهلية بأبى عامر الراهب فأسموه المؤمنين أبا عامر الفاسق .

أما ابن عبدالله بن أبى بن سلول وهو عبد الله بن عبد الله فقد آمن بالله ورسوله وجاءت أحد وخرج الرسول وخرج معه عبد الله ابن أبى بن سلول حتى إذا كانا قبل الموقعة بقليل انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول مع كتيبة من قومه المنافقين

أما أبو عامر فخرج فى خمسة عشر رجلا من الأوس وكان يذكر لقريش أنه إذا نادى قومه من الأوس المسلمين استجابوا له وانضموا إلى قريش فخرج فنادى : « يامعشر

الأوس — أنا أبو عامر » فأجاب الأوس المسلمون : « لا أنعم الله بك يافاسق » ثم هجموا عليه مقاتلين فهرب . . وكان منهم ابنه حنظلة بن أبي عامر .

صفحة من صفحات الفناء الذاتى فى رسالة الله لاتتصور : حنظلة بن أبى عامر ابن سيد قومه — وفى شرخ الصبا . نعم كان صحابة رسول الله كلهم شبابا زاهرا لم يكونوا شيوخا قد لج بهم العمر فزهدوا فى الدنيا بعد أن أخذوا منها الكفاية ، أبدا لقد رشفوا من دين الله — وهم فى زهرة الحياة . . ثم ضحوا بكل شيء فى أيام التضحية .

وفى ليلة الجمعة كان عرس حنظلة بن أبى عامر . . فقد تزوج جميلة بنت عبد الله ابن أبى بن سلول ، وفى صباح ذلك اليوم نادى المنادى إلى الحرب ، فما سمعها حنظلة حتى تقلد سيفه ودرعه سراعا ، ثم سار إلى القتال . فلما بدأت الحرب قاتل قتال الأبطال . ثم انكشف المسلمون فأخذ حنظلة يقاتل وهو يمر بعينه بين صفوف المشركين ، حتى يجد أبا سفيان . فلما وجده هجم عليه ، فوقع أبو سفيان ، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فصاح أبو سفيان مستنجدا بقريش — يامعشر قريش أنا أبو سفيان ابن حرب — فسمع الصوت رجال من قريش فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة قاتلة من وراء ظهره فاستدار إليهم ، ولكنهم تناولوه بالرماح . . فمات .

* * *

ومر أبو سفيان بعد الموقعة بأبى عامر الفاسق يطوفان بين القتلى هل يرى محمدا ، فمر بخارجة بن أبى زهير ، فقال أبو عامر يا أبا سفيان هل تدرى من هذا القتيل .

— لا

— إنه خارجة بن زيد بن أبى زهير الخزرجى ، هذا سيد بلحرث بن الخزرج .

ثم مر بعباس بن عباده بن نضلة وهو نائم على جنبه فقال :

— يا أبا سفيان هذا قوقل ، هذا الشريف فى بيت الشرف ، ثم مر بذكوان ابن عبد قيس فقال : هذا ذكوان بن عبد قيس الشريف اليثربى . . ثم رأى ابنه وقد تناولته الرماح ومزقته فوقف أمامه صائحا :

— يا أبا سفيان أتدرى من هذا . . قال : لا . قال : هذا أعز من ههنا علىّ هذا حنظلة بن أبى عامر .

— ولدى إن كنت لأحذرك من قبل هذا المصرع — والله إن كنت لبرا بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك . . و إن حمامك لمع سراة أصحابك وأشرافهم ، و إن جزى الله هذا القتيل ـ حمزة ـ خيرا أو أحدا من أصحاب محمد فجزاك الله خيرا . ثم نادى بأعلى صوته : « يامعشر قريش حنظلة لايمثل به و إن كان خالفنى وخالفكم فلم يأل لنفسه فيما يرى خيرا »

فمثل بالناس ولم يمثل به .

* * *

ولكن حنظلة كان فى عالم آخر غير عالمنا . وها هوذا الرسول يطلع على هذا العالم ثم يقول لأصحابه : « إنى رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » و يسرع الصحابة إلى حنظلة ينظرون إليه فإذا رأسه يقطر ماء . . فعادوا إلى الرسول فأخبروه فبعث إلى امرأته يسألها — فأخبرتهم أنه ماسمع هيعة الحرب حتى خرج وهو جنب لم يغتسل فغسلته الملائكة . . . فطوبى لك ياغسيل الملائكة مقامك العلوى .

— ٣ —

حبر اليهود

« وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » .

كان حبر اليهود وعالمها وسيدها أدرك الحق فى رسالة رسول الله فعرفه ، ودلائل نبوته فى كتابهم فعلام لا يتبعونه ولا يسيرون وراءه ، ولكنها فتن النفس تقلب الحق باطلا والباطل حقاً .

« وقالوا قلوبنا غُلفٌ بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلا ما يؤمنون — ولمّا جاءهم

كتابٌ من عندِ اللهِ مصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون عَلَى الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ اللهِ عَلَى الكافرين » .

كم كانت تلك الآيات تبعث فى نفس « مخيريق » حبر اليهود من الآلام ووخز الضمير ما يسهره الليالى الطوال فعاش فى قلق مستمر . قد آمن عبد الله بن سلام حبر اليهود من قبل ، فأذاع عنه اليهود ، ووقعوا فيه ، وخشى مخيريق أن يحدث له ما حدث لعبد الله ، ولكن أيبيع مجد الآخرة بمجد الأرض ، مجد الخلد بمجد الفناء . . ما هذه الأرض الواسعة التى لك ؟ وما هذا المال الوفير الذى تمرح فيه إذا ما أعقبه تأبيد فى نار تلظى ؟ . . إيه أيتها النفس ! يتنازعك أبداً سلطانان ، سلطان من الباطل يثير فيها النعيم الإنسانى ، وسلطان من الحق يثير فيها الجزاء الخالد الإلهى .

المال والبنون والحياة . .

جنة عرضها السموات والأرض . . .

وأنصت مخيريق . . لصوت الضمير . . واستمع إليه يثير فيه أقدس الدواعى فخرج من بيته إلى أكابر قومه ورسول الله بأحد ووقف عليهم قائلا :

يامعشر اليهود — والله إنكم لتعلمون أن محمداً لنبى وإن نصره عليكم لحق .

ففزعوا فزعاً شديداً وقالوا : إن اليوم يوم السبت قال :

لا سبت لكم عندى — أيها الناس إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله .

ثم حمل سيفه وحضر أحدا — والدائرة على المسلمين ، فلم يجزع ولم يهن بل دخل فى القتال فذب بسيفه حتى قتل .

وعلم رسول الله بأمره فقال : مخيريق خير يهود . . . وفرقت ثروته على فقراء المسلمين . والملائكة تطل على أحد تردد . . « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » .

— ٤ —

السيد القرشي

« أبو سلمة بن عبد الأسد » سيد من سادات قريش ، وعظيم من عظمائهم — أمه برة بنت عبد المطلب عمة النبي .

دعى داعى الله ، فأسلم أبو سلمة قبل أن يدخل النبي دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها وأسلمت امرأته أم سلمة هند بنت أمية — ونشأ أولادهم سلمة وعمر وزينب ودرة فى رحاب الإسلام وطهره — وتحمل أبو سلمة من قريش أقسى الاضطهاد فلم يهن — حتى أمر رسول الله صحابته بالهجرة إلى الحبشة . فهاجر أبو سلمة الهجرتين ، الأولى والثانية ، وقد صحب زوجه العظيم معه فى الهجرتين .

وعاد أبو سلمة إلى مكة حين فكر النبي فى التوجه — هجرة — إلى المدينة .

وبدأت الهجرة إلى المدينة — فكان أبو سلمة أول مهاجر إليها ، ونزل بقباء على مبشر بن المنذر وحين تكون المجتمع الإسلامى الأول العظيم — مجتمع المؤاخاة والحب — آخى الرسول بين أبى سلمة و بين سعد بن خيثمة .

واستعرت نار الحرب بين المسلمين والمشركين فشهد أبو سلمة بدراً — وفى أحد — دافع تحت اللواء العظيم وجرح جرحاً شديداً ، إذ قذفه أبو أسامة الجشمى بمعبلة فى عضده — فمكث شهراً يداوى جرحه حتى اندمل الجرح على آثار مسممة وهو لا يعلم .

وأراد النبي أن يبعث سرية إلى بنى أسد — فبعثه على رأسها — فغاب بضع عشرة ليلة ثم قدم المدينة فانتقض به الجرح وزاد النزيف ، وعلم النبي بالأمر — فأسرع إلى صديقه الوفى وسمع النبي بكاء أهله ، وفاضت نفس أبى سلمة فأغمض النبي عينيه ونام الرجل نومته الأخيرة بين يدى رسول الله — والرسول يردد : « اللهم افسح له فى قبره ، وأضىء له فيه ، وعظم نوره واغفر ذنبه ، اللهم ارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى تركته فى الغابرين » .

ولقد أضىء القبر العظيم ، وعظم النور الذى مات لأجله أبو سلمة فانتشر الإسلام عظيما فى العالمين .

* * *

إن الفداء الحق فداء من أقبلت عليه الحياة وملكها ، لا فداء من أدبرت عنه وخرجت من يده — فضحى وفدى — أما الأول فهم الأموات الخالدون وأما الأخر فهم الأموات أبداً — ومن ذلك الصنف الأول — كان أهل أحد . . .

سعد بن معـــاذ

« من رجل من أمتك مات الليلة اهتز لموته عرش الله ؟ » .
« من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء ؟ » .

تسامع أهل يثرب بخبر النبوة من النفر الذين عادوا من بطحاء مكة ، وصبت نفوسهم الفطرية نحو هذا النبع الجديد ، فأخذوا يرتشفون منه ، ويقبلون نحو مصعب ابن عمير رسول رسول الله ، فيسلمون بين يديه فى منزل الصحابى الجليل أسعد ابن زرارة — وقد خرج به أسعد يوماً يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، وجلسا على حائط واجتمع إليهما نفر ممن أسلم — وسمع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا عبد الأشهل بهما — وكانا مشركين على دين قومهما فقال سعد لأسيد : « لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما عن أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن سعد بن زرارة من حيث قد علمت كفيتك ذلك هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدماً » . وهنا أخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب ابن عمير — هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه — قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

وهنا أقبل أسيد شاتماً صائحاً : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب : « أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره »

— أنصفت .

ثم ركز حربته ، وجلس إليه وبدأ الداعية العظيم يعرض عليه الإسلام ، ويقرأ عليه القرآن . وقد أحس الاثنان أن الرجل أخذته روعة الحق وقداسته فى إشراق وجهه وتسهله ، ثم قال أخيراً : « ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين » . قالا له :

— تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ، فقام فاغتسل ، وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : « إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ » .

ثم أخذ حربته ورجع إلى سعد وقومه ، وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال :

— أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغيرالوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد :

— ما فعلت ؟

— كلمت الرجلين فوالله مارأيت بهما بأساً ، وقدنهيتهما ، فقالا : نفعل ماأحببت وقد حدث أن بنى حارثة قدخرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه — وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك .

فقام سعد كالأسد الكاسر مغضباً مبادراً متخوفاً ، فأخذ الحربة من يده ثم قال :

— والله ما أراك أغنيت شيئا . ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد :

— يا أبا أمامة لولامابينى و بينك من القرابة مارمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره ؟ . .

وأسعد بن زرارة يسر إلى مصعب بن عمير : « أى مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لايتخلف عنك منهم اثنان » . وقد طلب منه مصعب أن يجلس ، فجلس ليسمع كما جلس أسيد ، وقد أشرق هذا الوجه العبوس وتسهل وحملت الرياح إلى آطام المدينة وأرجاء مكة ، أن سعد بن معاذ سيد المدينة قد أسلم وآمن ، وأسلم معه أهله وآمنوا ، فلقد ذهب إليهم قائلا : يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة .

قال : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة .

وحوّل سعد بن معاذ مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى داره ، فكانا يدعوان الناس إلى الإسلام فيها — وكان سعد وأسيد يكسران أصنام بني عبد الأشهل

وهاجر النبي صلوات الله عليه إلى المدينة ، وآخى بين سعد بن معاذ وسعد ابن أبي وقاص . وهنا تبذل صفحة البذل والفداء التي كتبها آل معاذ في سفر الوجود

وخرج المسلمون لعير قريش في بدر ، وحمل لواء الأنصار سعد بن معاذ ، فلما وصلوا علموا أن قريشاً خرجت لتحمى عيرها . وهنا كانت مشكلة من أدق المشاهد . لقد عاهد الأنصار على الدفاع عن الرسول في بلادهم ولكنهم لم يعاهدوه على أن يسيروا معه لقتال عدوّ غير مُغير على بلادهم ، فاستشار المهاجرين فوعدوه على بذل أنفسهم رخيصة في سبيل الله ، وهنا نظر إلى الأنصار وقال :

— أشيروا عليّ أيها الناس . . . فقال سعد بن معاذ :

— والله لكأنك تريدنا يارسول الله . قال : أجل . قال سعد :

— فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله ١٠١ -

معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته

ما تخلّفَ منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ،

صدق في اللقاء ، لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ذلك ، ثم قال :

— سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين

الآن أنظر إلى مصارع القوم .

وسار المسلمون حتى وقفوا أمام ماء بدر ، وهنا قال سعد بن معاذ

ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد ركائبك ، ثم نلقى عدونا ،

وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا ، و إن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام . . . يانبيّ الله ! ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حر باً ما تخلّفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك و يجاهدون معك .

فأثنى عليه الرسول الأعظم ، ودعا له بخير ، و بنى العريش واستمرت الحرب . وقام سعد على بابه متوشحاً السيف فى نفر من الأنصار ، يخافون عليه كرة العدو ، وانتصر المسلمون ، و بدأوا يأسرون الكافرين . وهنا رأى الرسول الأعظم فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الرجال . فقال له النبيّ صلوات الله عليه : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل ، والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلىّ من استبقاء الرجال .

واستدار العام وخرج المسلمون إلى أُحُد ، وحدث الهرج فى صفوف المسلمين . وهنا ثبت آل معاذ مع من ثبت حول الرسول صلوات الله عليه ، فأما عمر ابن معاذ فقتل . وأما سعد فقد كان يجول و يصول كالأسد الكاسر .

وجاء الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، ولم يأخذ أم سعد هند بنت سماك ضعف أو حزن ، لقد بايعت رسول الله وقدمت له كل شىء ، فما عادت ترى إلا محمداً صلوات الله عليه .

وحل عام الخندق إذ أقبلت قريش بخيلها ورجلها تحاصر الرسول فى عقر داره غير أن الخندق وقف فى وجوههم فلم يجدوا مكاناً يدخلون منه المدينة إلا إذا حاصر اليهود الرسول عليه الصلاة والسلام من ناحية دورهم وهنا لم يحفظ يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما بعض الصحابة يذكرونهم بعهودهم قائلا : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا — فإن كان حقاً فالحنوا

لى لحناً أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا و بينهم فاجهروا به للناس ، فخرجوا حتى آتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم وقالوا : مَنْ رسول الله ، لا عهد بيننا و بين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حدة وقوة . فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم . فما بيننا و بينهم أربى من المشاتمة . ثم أقبلوا على الرسول صلوات الله عليه وأخبروه .

عم البلاء على المسلمين ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل إلى سيدى غطفان يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، وجرى بينه و بينهما الصلح ، وأرسل إلى سيدى الأوس والخزرج فى ذلك فجاءاه قال سعد بن معاذ : « يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون منا ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا — وأعزنا بك و به نعطيهم أموالنا — والله مالنا بهذا من حاجة — والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا و بينهم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك — فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا .

حان هجوم المشركين الأكبر على المسلمين . تقول عائشة أم المؤمنين وكانت فى حصن بن حارثة يوم الخندق وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد ابن معاذ معها فى الحصن : « وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فسمعت وئيد الأرض ، فالتفت فإذا سعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه وهو يرتجز :

لبث قليلا يدرك الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه : الحق يا بنى فقد والله أخرت . فقالت لها عائشة : والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى عليه . وأخذ سعد يناوش المشركين حتى رماه جبان بن قيس بن العرقة بسهم فقطع منه الأكحل وهو يقول : خذها وأنا ابن العرقة . فقال سعد : عرق الله وجهك من النار . . . اللهم لا تمتنى حتى تشفنى

من قريظة — فرقأ جرحه — وبعث الله الريح على المشركين ففروا — ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم وتحصنوا فيها .

أما سعد ، فقد جعل فى خيمة فى المسجد ، تقوم على مداواته فيها رفيدة سيدة من أسلم وهبت نفسها لخدمة المرضى . سار الرسول الأعظم إلى يهود من قريظة — وقد كانت خياناتهم ستؤدى — لولا نصر الله — إلى القضاء على المسلمين والإسلام — وحاصرهم حتى خضعوا ونزلوا على حكمه — فحكم فيهم سعد بن معاذ قائلا حين خاطبوه فى ذلك :

— ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ .

— بلى .

— فذاك الأمر إلى سعد بن معاذ .

فأتاه قومه فحملوه على حمار ، قد وطئوا له بوسادة من آدم ، وكان رجلا طويلا جسيما جميلا . . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ويفصح عن حكمه فيهم . فلما وصل سعد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال الرسول للمهاجرين وللأنصار : « قوموا إلى سيدكم » فقاموا إليه وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

قال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيها لما حكمته — نعم

— وعلى من ههنا .

يشير بذلك إلى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض إجلالا له — فقال الرسول الأعظم : نعم . قال سعد : إنى أحكم فيهم أن تقتل

الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . فقال الرسـول : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان هذا أعدل حكم جزاء خيانتهم ونـكالهم برسول الله .

ثم دعا الله سعد : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه . اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا و بينهم — فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك ، و إن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا و بينهم فافجرها واجعل موتتى فيها » .

وعاد إلى خيمة رفيدة — فانفجر جرحه ودخل عليه الرسول واعتنقه والدم ينقع فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم الدم إلا ازداد منه قربا . . . قائلا : « اللهم إن سعداً قد جاهد فى سبيلك وصدق رسولك فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحا » .

فلما سمع سعد كلام رسول الله صلى الله عليه وسـلم فتح عينيه ثم قال : « السلام عليكم يا رسول الله ، أما أنا فإنى أشهد أنك رسول الله » . ثم حمله أهله إلى ديار بنى عبد الأشهل ، ليمرضوه فيهم .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسدل الليل أسجافه . . ونامت الـكائنات . . واستيقظ محمد صلوات الله عليه ، لقد أتاه جبريل منادياً :

« من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء » .

وردد المنادى . . ألا إن سعداً قد مات . .

فقام الرسول إلى ديار بنى عبد الأشهل وخرج معه الناس ، وسار عليه الصلاة والسلام فى سرعة حتى أن شسوعهم لتنقطع من أرجلهم وأن أرديتهم لتقع من عواتقهم فقال له رجل : « يارسول الله قد أجهدت الناس » .

— إنى أخشى أن تسبقنا إليه الملائـكة كما سبقتنا إلى حنظلة .

وكان الميت مسجى على سريره — ودخل الرسول وحده وسمعه الناس يقول : « هنيئاً لك أبا عمر هنيئاً لك أبا عمر — جزاك الله خيراً من سيد قوم فقد أنجزت الله ما وعدته ولينجزك الله ما وعدك » . وأمه تبكى . .

ويل أمك سعدا صرامة وجبـــا

فقيل لها : « أتقولين الشعر على سعد » ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها فغيرها من الشعراء أكذب » . وحملوه إلى قبره فلما وضع منه تغير وجه الرسول الأعظم وسبح ثلاثاً فسبح المسلمون ثلاثا ، حتى ارتج البقيع : ثم كبر الرسول ثلاثاً وكبر المسـلمون حتى ارتج البقيع ، فسئل عن ذلك فقيل : يا رسول الله رأينا بوجهك تغيراً وسبحت ثلاثا . فقال : « تضايق على صاحبكم قبره وضمه ضمة لو نجا منها أحد لنجا سعد » . وجاءت أمه تنظر إليه فى اللحد فردوها فقال النبي صلوات الله عليه : دعوها فأقبلت حتى نظرت إليه وهو فى اللحد قبل أن يبنى عليه باللبن والتراب فقالت : احتسبتك عند الله . ثم سوى القبر ورش عليه المـاء . مات سيد الأوس فى السابعة والثلاثين من عمره وكانت حياته المثل الأعلى فى التضحية والوفاء تقول عائشة : « وما كان أحد أشد فقداً على المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أو أحدهما من سعد بن معاذ » .

الأمـــــراء . . .

صلى الإله عليهم من فتية　　وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للاله نفوسهم　　حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

— ١ —

زيد بن حارثة

« أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى »

وصحا الكلبيون على نغمات صوت حزين يردد أغانى باكية حلوة . .

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل　　أحىٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل　　أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة　　فحسبى من الدنيا رجوعك لى بَجَلْ

وسألت امرأة زوجها : من هذا المنشد ؟ .

— إنه حارثة بن شراحيل يبكى ابنه زيداً . خرجت أمه سعدى بنت ثعلبة معه تزور قومها بنى معن ، فأغارت خيل لبنى القين بن جسر فمروا على أبيات بنى معن فاحتملوا زيداً — وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً — ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

ألا تسمعين لقد عاد الرجل إلى إنشاده :

تذكرنيه الشمس عند طلوعها　　وتعرض ذكراه إذا غربُها أفَلْ
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره　　فيا طول ما حزنى عليه وما وَجَلْ
سأعمل نص العيش فى الأرض جاهداً　　ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى عَلَىَّ منيتى　　فكل امرىء فان وإن غره الأمل

وقام شيخ عجوز نحوه :

— حنانيك أيها الرجل بعض ما أنت فيه .

— لقد فرى كبدى .

وكان موسم الحج قد أقبل فحج قوم من كلب وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكى حارثة بن شراحيل ومضوا يطوفون بالبيت . وهناك رأوا زيداً فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم فقال : بلغوا أهلى هذه الأبيات فإنى أعلم أنهم قد جزعوا على :

ألكنى إلى قومى وإن كنت نائياً ... بأنى قطين البيت عند المشاعر

فكفوا عن الوجد الذى قد شجاكم ... ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر

فإنى بحمد الله فى خير أسرة ... كرام معد كابراً بعد كابر

وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله ، وهبته له .

* * *

وانطلق الكلبيون وأعلموا أباه فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه وقدما مكة فسألا عن النبى صلوات الله عليه ، فدخلا عليه وقالا :

— يا ابن عبد الله ، يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه ؛ أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير ؛ جئنا فى ابننا فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سنرفع لك فى الفداء .

— ماهو ؟

— زيد بن حارثة

— فهل لك غير ذلك ؟

— ماهو ؟

— دعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى .

— قد زدتنا على النصف وأحسنت . فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

— هل تعرف هؤلاء؟ — نعم . — من هما . ؟

— هذا أبى وهذا عمى

— فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما .

— ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم . فقالا :

— ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك .

— نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا .

فلما رأى رسول صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال :

— يامن حضر ، اشهدوا أن زيد ابنى أرثه ويرثنى . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا .

ونزلت الرسالة على محمد صلوات الله عليه فكان زيد أول من أسلم به — ولم يترك النبى صلوات الله عليه لحظة فأحبه حبا شديداً .

وأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة لأصحابه . وهاجر زيد ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة ؛ ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين كان حمزة سيد الشهداء وزيد أخوين فى الله . ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحد . واستخلفه الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة حين خرج إلى المريسيع وشهد الخندق والحديبية وحنين . وخرج زيد أمير سبع سرايا أولها القردة فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد فرات بن حيان العجلى ، وقدم بالعير على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت عائشة : « مابعث رسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليهم ولو بقى بعده لاستخلفه . »

وأراد الرسول الأعظم أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة من آلاف من المسلمين ، وعقد لزيد وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب

زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة . » فوقف جعفر فقال : « يارسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل على زيدا . » فقال : « أمضه فإنك لاتدرى أى ذلك خير . »

وسار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى مؤتة ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا . . ولـكن مالبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها . . وتناولته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

. . . وأخيرا قتل الأمير .

أيتها النفس الـكبيرة ، لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

. . . وفى المدينة وقف النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « استغفروا لزيد — لقد دخل الجنة وهو يسعى » ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد فى وجهه فبكى حتى انتحب فقال له سعد بن عبادة :

— يارسول الله ما هذا ! ؟

— هذا شوق الحبيب إلى الحبيب .

— ٢ —

جعفر بن أبى طالب

« لقد رأيت جعفراً فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء مصبوغ القوادم » .

مات عبدالمطلب سيد مكة وترك لابنه أبى طالب هذا المجد العريض المؤثل — ولـكن السيد الجـديد كان يقاسى الفقر وشظف العيش — وكان ماينوء به

كاهله كثرة الأولاد . وقد مرت بمكة أيام جدب عجاف وأصابت قريشا أزمة شديدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هـذه الأزمنة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا فنكفهما عنه . فقال العباس : نعم . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه . فقال لهما : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسـلم علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفر فضمه إليه .

وقد بقى جعفر عند العباس يعيش فى ترف وثراء حتى بعث الله نبيه ، فأسـلم جعفر قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ويدعو فيها . واستغنى حينئذ عن عمه . وأصاب جعفر من قريش أذى كثير ، دعاه إلى الخروج إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، وكان هناك أمير المهاجرين .

وبعثت قريش إلى النجاشى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص يطلبان تسليم أولئك النفر الذين خرجوا على دين اللات والعزى . فدعا النجاشى جعفراً وسأله عن هذا الدين الذى يدينون به ، فأجابه إجابة صريحة واضحة رأى النجاشى بعدها ألا يسلمهم وأن يمنعهم فى أرضه ، ورد إلى الرسولين هدايا قريش . فلما عاوده عمرو بن العاص طلب منه أن يسأل جعفر عن قول الإسلام فى ابن مريم : إنه ليس إلا عبداً أنعم الله عليه . أجابه جعفر أيضاً فى صراحة واضحة أبى النجاشى بعدها إلا أن يقيموا فى أرضه آمنين سالمين .

وقضوا فى الحبشة ما أراد لهم الله حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبعث إلى النجاشى عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى وطنهم . وسارع جعفر وصحبه إلى المدينة ، والنبى صلوات الله عليه بخيبر سنة سبع من الهجرة . ورجع النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر فتلقاه جعفر ، فالتزمه النبى صلوات الله

عليه وقبل ما بين عينيه وقال : « ما أدرى بأيهما أنا أفرح : بقدوم جعفر ، أو بفتح خيبر » . وآخى بينه و بين معاذ بن جبل ، وعاش سيد شباب بنى هاشم فى المدينة مدة قصيرة الزمن دعى بعدها إلى الجهاد فى مؤتة فلم يتردد ولم يهن بل ودع زوجه وأطفاله ، وخرج غازياً . وتقابلوا مع الروم فى مؤتة وقتل أميرهم زيد بن حارثة أمام أعينهم . لحمل اللواء جعفر فتى بنى هاشم ، لجاءه الشيطان ومناه الحياة الدنيا وكره له الموت فقال جعفر : « الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تمنينى الدنيا » ولم يتردد لحظة بل اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة و بارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إن لاقيتها ضرابها

ثم انقض على الروم يقتل فيهم يميناً وشمالاً ، ولكن ما لبثت سيوفهم أن قطعت يمينه ، فأخذ اللواء بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، فضربوه بسيوفهم ، حتى قطعوه نصفين ، وأقبل عليه المسلمون فوجدوا فيما بقى من بدنه تسعين ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف . . .

مات فتى بنى هاشم فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بعد أن ترك وراءه أبناء لا متاع لهم فى الحياة ولا مال . وكانت زوجه (أسماء بنت عميس) وقتئذ تنظف أولادها وتعطرهم . . . فأتاها الرسول الأعظم وقال : ائتنى ببنى جعفر ، فأتته بهم فتشمهم وذرفت عيناه فقالت : يارسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ، أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء .

— أصيبوا اليوم .

فقامت تصيح ، واجتمعت النساء فخرج نبى الله صلوات الله عليه وقال : « لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم »

ووقف صلوات الله عليه يقول فى وسط المسلمين : « لقد رأيته فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء مصبوغ القوادم » .

وأتت أسماء إلى رسول الله فذكرت يتمهم فقال : « العيلة تخافين عليهم ، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة » ؟ .

— ٣ —

عبد الله بن رواحة

الأمير الشاعر

« نعم الرجل عبد الله بن رواحة »

سارت القافلة من يثرب إلى مكة وفيها سبعون من بنى الأوس والخزرج ذهبوا إلى الجنوب ليبايعوا الرسول الأعظم على نصرته حتى الموت ، فكانوا هم بعد ذلك الأنصار الذين آووا ، والذين نصروا ، والذين آثروا رسول الله وصحبه على أنفسهم وعلى أولادهم ونسائهم .

وفى العقبة بايعوا الرسول الأعظم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ثم طلب منهم أن يخرجوا إليه اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرج بنو الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة نقيباً لهم . وكان عبد الله كبير القدر فى الجاهلية ، وكان كاتباً والكتابة قليلة فى العرب . . . واستقبل الأنصار الرسول صلوات الله عليه حين هجرته ، وكانوا له العشيرة الأوفياء ، وفنى عبد الله بن رواحة فى دعوة الله وطاعة رسوله . . . أتى النبى الكريم وهو يخطب فسمعه يقول : اجلسوا ، فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من خطبته ، فبلغ ذلك النبى صلوات الله عليه فقال له : زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله . ولما آذن القتال كان عبد الله أول خارج إلى الغزو ، وأول قافل ذب عن رسول الله بلسانه وحضر المشاهد كلها ، وأرسله رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى العالية ليبشر أهلها بوقعة بدر ، ودخل النبي الأعظم بعد سنوات الجهاد مكة فى عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقته يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله

يارب إنى مؤمن بقيله أعرف حق الله فى قبوله

فقال عمر : يا ابن رواحة حرم الله و بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر ! فقال : خل عنه ياعمر ، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل ، ثم قال :

يارب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا

فأنزِلَنْ سكينة علينا وثبِّت الأقدامَ إن لاقينا

إن الكفّار قد بغوا علينا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحمه ، فقال عمر : وجبت ، ولما نزلت : « والشُّعَرَاء يتَّبِعُهُمْ الْغَاوُون » قال عبد الله إنى منهم . فأنزل الله : « إلا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات » .

و بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين راكباً إلى أسير بن قرام اليهودى بخيبر فقتله ، و بعثه بعد فتح خيبر فخرص عليهم . يقول أبو الدرداء : أعوذ بالله أن يأتى علىَّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقينى مُقبِلاً ضرب بين ثديى ، و إذا لقينى مُدْبِرًا ضرب بين كتفى ! ! ثم يقول : يا عويمر تعال ساعة فلنجلس فنذكر الله ما شاء ، ثم يقول : ياعويمر هذه مجالس الإيمان . وسألوا امرأته عنه فقالت : كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين ، و إذا دخل صلى ركعتين ، لايدع ذلك . وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل

* * *

وتهيأ المسلمون للخروج إلى مؤتة ، فلما وَدّع عبد الله بن رواحة من ودَّع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى فقالوا :

— مايبكيك يا ابن رواحة :

— أما والله ما بى حب الدنيا ، ولا صبابة إليها ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : « وإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُهَا كانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً » فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ! !

فقال المسلمون : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين .

فقال ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيد حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مرُّوا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رُشدا

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودَّعه ثم قال :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن ... فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرَّست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفت فيك الذى نظروا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيعهم حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرىء ودعته ... فى النخل خير مشيع وخليل

ثم سار الجيش وكان فى رحال عبد الله بن رواحة زيد بن أرقم وكان يتيما له وقد أردفه على حقيبة رحله ، وقد سمعه ليلة وهو ينشد :

إذا أدنيتنى وحملت رحلى ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعمى وخلاك ذمى ... ولا أرجع إلى أصلى ورائى
وجاء المؤمنون وغادرونى ... بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ... ولا نخل أسافلها سواء

:

فلما سمعه زيد بكى فخفقه بالدرة وقال « ما عليك أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتى الرحل . »

ومضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ثم مثلهم من المستعربين ، فلما علم ذلك المسلمون أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال و إما أن يأمرنا بأمره فنمضى له — فشجع عبد الله بن رواحه الناس وقال : « ياقوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور و إما شهادة » فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بقربة مشارف دنا العدو منهم وانحاز المسلمون إلى مؤته ثم بدأ — فهجم زيد بن حارثة فقتل — ثم اقتحم جعفر الروم فقتل — فلما قتل جعفر دعا الناس عبد الله بن رواحة وهو فى جانب العسكر فتقدم فقال وهو يخاطب نفسه :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلى فعلهما هديت
و إن تأخرت فقد شقيت

يعنى زيدا وجعفرا ثم قال : يانفس إلى أى شىء تتوقين - إلى امرأتى فهى طالق - إلى غلمانى فهم أحرار - و إلى صحن حائط فهو لله ورسوله ، ثم أخذ اللواء واستقبل فقاتل برهة . . . ثم عاد . . . وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب . يلوم نفسه على لحظة صغيرة ترددها فعاد يقول :

يانفس مالك تكرهين الجنة أقسم بالله لتنزلنه
طائعة أو لتكرهنه فطالما كنت مطمئنة

هل أنت إلا نطفة فى شنه   قد أجلب الناس وشدوا الرنة .

فلما نزل للقتال طعن فاستقبل القوم بيده فدلك به وجهه ثم صرع بين الصفين حتى قتل .

* * *

واجتمع المهاجرون والأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخذ زيد بن حارثة الراية فقاتل حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل شهيدا . . » ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أن كان فى عبد الله بن رواحة ما يكرهون فقال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيدا . . ثم لقد رفعوا إلى فى الجنة على سرير من ذهب فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة أزورارا عن سريرى صاحبيه فقلت عم هذا ؟ فقيل لى مضيا وتردد عبد الله بعض التردد .

على ماء الرجيع

[ما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار الرفيع .
والإيثار ما هو ؟ إنه ليس إلا فناء فى رسالة محمد فلا يرى
غيرها إلا سرابا ووهما . . وإنه ليس إلا تخلياً عن الوجود
الذاتى ، وترفعاً عنه لحياة أخرى كلها خير إلهي . . فلم يحن
الفرد منهم عذاب ولا وصب ، إنما تعلو نفسه عن كل تلك
الدنايا ويصغر فى عينه عالم الأرض محلقاً هائماً نحو عالم البقاء
وهكذا كان صحابة الرسول الأول . . .]

ونادى المنادى فى مسجد الكوفة يقول : ألا من يريد أن يسمع زياد ابن عبد الله الصوفى[1] وهو يقص عن هؤلاء الذين ذهبوا فى نضرة الحياة وخيروا فاختاروا بلا تردد ولا إحجام واجتمع الناس حول زياد ، وتصدر زياد المجلس وهدأ الناس جميعا .

أصاب الرسول الأعظم من عشيرته وقومه ما أصابه من أذى وألم وإرهاق . . . وكأنى أستعيد تلك الصور القاسية ، وألمحه أمامى متقنباً على الأذى صابراً فيه وهاجر النبى الكريم إلى يثرب وهناك نصره الله بأسود الأنصار يحمون دياره ويدافعون عن حوزته ويمنعونه ما منعوا نساءهم وأولادهم وأنفسهم .

وقامت بدر وأحد . . وهزم المسلمون فى هذه الواقعة الأخيرة وتلمس أعداؤهم الفرص للإيقاع بهم والقضاء عليهم وفشا النفاق فى المدينة وكثر . وفى تلك الأثناء أقبل على الرسول الكريم رهط من « عضل » يعرضون نصرهم وإسلامهم على الرسول فقالوا :

يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرؤننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام — واستبشر المسلمون خيراً وأرسل الرسول فيهم ستة من أعلام أصحابه . . من البدريين الذين أيدتهم الملائكة

---

(١) زياد بن عبد الله الصوفى شخصية متخيلة وضع المؤلف قصة أبناء الرجيع الحقيقية على لسانه .

وأطل عليهم الله المتعالى وقال لهم : « افعلوا ما شئتم لقد غفرت لكم » . وكان هؤلاء الستة من البدريين ومن السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين مرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن البكير الليثى وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح وخبيب بن عدى وزيد بن لدثنة وعبد الله بن طارق ؛ وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرثد ومضوا حتى إذا كانوا على الرجيع ماء لهذيل غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم فى الرحال غير الرجال يحيطون بهم من كل جانب و بأيديهم السيوف قد غرهم فأخذ الصحابة الأطهار سيوفهم ليقاتلوهم فقال لهم أعداؤهم :

— إنا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

* * *

ولكأنى أراهم الآن . . أرى عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح وهو يتذكر ليلة بدر وفيها قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : « كيف تقاتلون » فقام عاصم فأخذ القوس والنبل وقال : « إذا كان القوم قريباً من مائتى ذراع كان الرمى و إذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا بالسيوف وكانت المجالدة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هكذا نزلت الحرب — من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم » فكأنى أرى عاصما يتذكر يوم الرجيع هذا . . ويتذكر كيف أبلى يوم بدر . . وكيف كان له يوم أحد يوم ثبت مع الرسول الكريم ثبوت الأطواد وكان له القدح المعلى فى القتال فقتل كثيرين من قريش منهم مسافح بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحة — كلاهما يقذف بسهمه عليهما فيأتى أمه سلافة فتضع رأسه فى حجرها فتقول — يا بنى من أصابك — فيقول : سمعت رجلا حين رمانى وهو يقول : خذها وأنا ابن أبى الأقلح فنذرت إن مكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر . . لكأنى بعاصم يفكر فى هذا كله . . ويفكر فى عهده الرهيب الذى أعطاه لله أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا تنجسا

فكيف ينزل إذن فى ذمة مشرك غادر . . لا . . دون هذا الجلاد والطعان .

* * *

ومرثد بن أبى مرثد . . حليف حمزة بن عبد المطلب وأحد عباهلة بدر — كيف يرضى لنفسه الهوان والذل فى جوار مشرك — وخالد بن البكير . . وقد اصطفاه رسول الله مع عبد الله بن جحش فى رهط المهاجرين فى أول سرية ، كيف يعطى بيده . . لا ، أبدا — لقد صاح ثلاثتهم : « والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقدا » واستلوا سيوفهم وعاصم على رأسهم يناوش القوم مرتجزا :

ما علتى وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل
وكل ما حم الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل
إن لم أقاتلكم فأمى هابل

ودار القتال عنيفاً شديداً بين جم غفير من المشركين ، وثلاثة من المسلمين . . فقتل عاصم وهو يقول : اللهم إنى حميت دينك أول نهارى فاحم لى لحمى آخر نهارى وقتل مرثد وقتل خالد فى ميعة الصبا وشرخ الحياة فقد كان فى الرابعة والثلاثين .

آن إذن لسلافة بنت سعد أن تشرب الخمر فى رأس عاصم ، واقترب المشركون من هذيل من جسد عاصم ليقطعوا رأسه ليبيعونها من سلافة بأبخس الأثمان ولكن لم يعلموا أن الله منع جسده منهم — فلقد أحاطت الدبر بعاصم فما استطاع مشرك أن يقترب منه فقالوا : دعوه حتى يمسى فيذهب عنه فنأخذه . . وأمطرت السماء و بعث الله الوادى فاحتمل عاصما معه .

* * *

أما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق فقد رقوا ولانوا فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهيران ناحية قرب مكة صاح عبد الله بن طارق : « والله إن لى فى عاصم وصاحبيه لأسوة » فانتزع يده من القيد ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم ورموه بالحجارة حتى قتلوه — فقبروه بالظهيران

أما زيد وخبيب فقد قدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، فابتاع حجر بن أبى أهاب التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحرث ابن عامر خبيباً ليقتله بأبيه . . . وابتاع صفوان بن أمية زيداً ليقتله بأبيه أمية ابن خلف . . وسجن الأول فى بيت ماوية مولاة حجير بن أبى أصاب ، والثانى فى بيت صفوان . . وكانت حياة كل منهما فى تلك الفترة التى قضياها فى مكة سموا على الحياة وكلها إعجازاً للقرشيين ، ولكن ما كان لتلك القلوب أن تؤمن . . كانت كالحجارة أو أشد قسوة .

وكانا يقضيان نهارهما فى العبادة وليلهما فى التهجد . وقد رفض زيد وخبيب أن يأكلا مما لم يذكر اسم الله عليه — فكانا يتناولان اللبن . وتقول ماوية لنا بعد ذلك : « كان خبيب عندى حبس فى بيتى فلقد اطلعت عليه يوماً وأن فى يده لقطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم فى أرض الله عنباً يؤكل . . . »

وقد طلب منها يوماً حين عرف موعد قتله موسىً يتطهر بها للقتل ، قالت : فأعطيت غلاماً من الحى الموسى ، فقلت ادخل بها على هذا الرجل البيت . ثم قالت : فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قلت لنفسى ما ذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل . فلما ناوله الموسى أخذها من يده ثم عطف وحنا عليه وقال : لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة ثم أخذ يلاعبه ويناغيه . وهنا أقبلت المرأة فنظر إليها خبيب وقال : أتحسبين أنى أقتله ، إن دينى ينهى عن الغيلة .

وخرج بزيد وخبيب إلى القتل وفى وسط المدينة تقابل الشهيدان ، ومع كل واحد منهما جماعة من قريش فتعانقا ، وأوصى كل منهما الآخر بالصبر على ما أصابه ثم ساروا بزيد إلى التنعيم ليقتل هناك وسار خلفه طائفة من أهل قريش من الرجال والنساء والصبية ،هناك قال له أبو سفيان :

— أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال :

— والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى . قال أبو سفيان :

— ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . وفى تلك الآونة انقض عليه نسطاس فقتله .

* * *

ثم ساروا بخبيب بعده إلى التنعيم أيضا ليصلبوه وهناك قال لهم :

— إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا .

— دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فكان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة وأوثقوه ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نخلى سبيلك . فقال — لا والله — ماأحب أن أرجع عن الإسلام وإن لى ما فى الأرض جميعا .

— ارجع ياخبيب

— لا أرجع أبداً .

— أما واللات والعزّى لئن لم تفعل لنقتلنك

— إن قتلى فى الله لقليل .

وجعلوا وجهه من حيث جاء ، فقال أما صرفكم وجهى عن القبلة فإن الله يقول « فأينما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله » ، ثم قال : اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم إنه ليس ههنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام فبلّغهُ عنى أنت السلام .

وفى تلك اللحظة اقتربوا منه بالرماح وقد أتوا بأر بعين من أبناء قتلى بدر وأعطوهم الرماح ثم قالوا : هذا الذى قتل آباءكم ببدر ، فقال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فأبلغه الغداة ما يصنع بنا . اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحداً .

وهنا ألقى معاوية بن أبى سفيان وكان من بين القرشيين نفسه إلى الأرض فرقا من دعوة خبيب ، وهرب حكيم بن حزام ، واختفى جبير بن مطعم . . . ثم بدأوا يطعنونه فاستدار إلى الكعبة فقال : « الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين » . ثم عاودوا طعنه مدة ساعة وهو ينادى : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . .

* * *

وكان الرسول الكريم فى المدينة بين صحبه ، فأخذته غيمة كما كان يأخذه إذا نزل عليه الوحى ثم قال : هذا جبريل يقرئنى من خبيب السلام ، وتركه أهل مكة مصلوباً أياماً عدة ؛ أرسل الرسول الكريم بعدها عمرو بن أبى أمية الضمرى فى سرية لقتل أبى سفيان . وقد غافل عمرو الحراس واحتمل جسد خبيب ، ولكن ما لبث القرشيون أن كروا عليه ، فترك الجثة ومضى ، ولكن قبل أن يغيب رأى الأرض تنفرج فرجة وتبتلعه . . .

تلك هى قصة أهل الرجيع . . .

وما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار الرفيع ، والإيثار ما هو ؟ إنه ليس إلا فناء فى رسالة محمد ، فلا يرى غيرها إلا سراباً ووهماً . . . إنه ليس تخطياً عن الوجود الذاتى ، وترفعاً عنه لحياة أخرى كلها خير إلهى ، فلم يخش الفرد منهم عذابا ولا وصبا ، إنما تعلو نفسه عن كل تلك الدنيا ، وتصغر فى عينه الأرض محلقاً هائما نحو عالم البقاء .

أولاد أبى أحيحة . . .

« أقبلوا على الإســلام والدنيا عنه فى إدبار فجاهدوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام فى إقبال فماتوا واستشهدوا . »

— ١ —

. . . ووقفت الحلقات المنتشرة فى البيت العتيق إجلالا لسيد بنى عبد شمس أبى أحيحة « سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس » وحوله أولاده الـكثيرون . وتطلعت الأعين إلى الرجل فى إجلال وهو يسير فى وسط تلك الـكوكبة من أولاده . يرفلون جميعاً فى الدمقس ويزين رءوسهم الريش ويفوح من أعطافهم الطيب . . وأبو أحيحة فى مقدمتهم يعتم بعمامة أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونها إجلالا له وإعظاماً . . وكان يقال له « ذو التاج » وقضى أبو أحيحة وقتاً فى البيت العتيق يتسامر مع أشراف قريش أبى سفيان وأبى جهل وأبى طالب وغيرهم . وانتشر أولاده فى حلقات القرشيين يتسامرون ويقضون ما شاء لهم . حتى إذا ما أدلج الليل عادوا إلى بيتهم مع أبيهم . حياة ناعمة يحيونها ويحياها معهم القرشيون يأخذون من الحياة نعيمها وترفها . ويقبل كل منهم على شهواتها ولذاتها . ألم يكن هذا كله أمنية القرشيين جميعاً . لا رادع ولا قانون إلا قانون الصحراء الجاهلى . هذا القانون الذى لا يدعمه نظام كامل مستقر إنما كانت تنظمه شهوات الإنسان ونوازعه ، شهوات الإنسان القوى ونوازعه . فلم يكن هناك ثمت عدل ولا عدالة ، بل سيطر القوى على الضعيف . أى تطبيق للعدل تستطيع الدنيا أن تشهده . إن لم يكن هناك إيمان به وأى عدل فى الدنيا إذا لم يكن هناك مصدر ثابت يحدده ويميزه . فليست الفضائل السامية والمثل العليا من عمل الإنسان المخلوق التعس ، الجمرة المشتعلة من الأثرة والرذائل، بل من عمل يوازى تلك المثل أو من هو أرفع منها . لم يخطر هذا على فكر القرشيين . بل كانوا فى عوالمهم المترفة . حتى جابهتهم حرب الفجار تلك الحرب التى

اصطلوا نارها فى الأشهر الحرم والتى كانت واحدة من تلك الحروب التى كانت تثار بين بطون العرب وتمتد السنين الطوال . ألم يكن هذا نتيجة لاختلال أوضاعهم الجاهلية التى لم تعرف مقاييس العدالة ، ولم تنظم منها علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله ، يدفعه تنظيم الأولى إلى احترام الوجود الإنسانى ، وتدفعه الثانية إلى احترام الوجود الإلهى .

وكان لابد لأشراف قريش أن يشاركوا فى هذه الحرب وأن يلقوا فيها بأنفسهم مدافعين عن حقوقهم . وخرج أبو أحيحة « سعيد بن العاص » ومعه أولاده من كبر منهم يقاتل ، ومن صغر يرمى بالنبل، والتحمت قريش وهوازن التحاماً شديداً قتل فيه « أحيحة » بن سعيد بن العاص . و بعد صفحات داميات من القتال وضعت الحرب أوزارها وعاد القرشيون إلى مكة وفى قلوب أقارب من قتل من أبنائها غصص و إحن وآلام . وعاد أبو أحيحة إلى مكة وذهب إلى أملاكه بالظريبة يتلمس فى الهدوء والعزلة سكناً لنفسه الحزينة . فقد قتل فى الحرب أكبر أولاده وأعزهم عليه ، وفارقه إلى الأبد ، وذهب ولكن ماهذا الذهاب . ماهو وما حقيقته . ما وراء هذا الموت . . واجتمع العرب فى عكاظ ومضى إليها أبو أحيحة فى أولاده ، وفى تلك اللحظة اجتمع العرب على رجل امتطى جملا أحمر هو قس بن ساعدة وهو يقول : « أيها الناس اجتمعوا . ثم اسمعوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات . وكل ما هو آت آت . يا معشر إياد . أين ثمود ! وعاد ! وأين الآباء والأجداد ! ؟ وأين المعروف الذى لم يشكر ؟ وأين الظلم الذى لم ينكر ؟ أقسم قس قسما حقاً إن لله لديناً هو أرضى عنده من دينكم » . ثم أنشد قس :

فى الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا	يبقى من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

سمعها العرب جميعاً ووعتها قلوبهم ولـكن نسوها جميعاً حين طوتهم الحياة بنعيمها ولذائذها ، فهذه الحياة هى المستقر النهائى طالما امتلأت بالشهوات وهى الوحى الحقيقى طالما سادت فيها النزعات البهيمية التى تنطلق ولا ضابط ولا رقيب ، ولـكن أبا أحيحة سمعها فذكر ابنه وذكر مضيه نحو هـذا الموت . أخذ يفكر ويفكر . . ويفكر بعمق ، ثم أنسته الدنيا بنِعَمِها كل شىء . .

— ٢ —

الإنسان . . لا يبقى ولا يستمر . . إنه يمضى على مدرجة الطريق حيناً من الدهر ثم يختفى . أطوار من الخلائق . . تنتظم فى الدنيا ثم يطويها العدم ، إنا نصنع ونبنى . . والإنسان أليس صُنعاً و بناء ، فمن الصانع والبناء ؟ كائنات الوجود ، الحياة كلهاتبدو ، ثم تخبو . أى سر هذا ، وأية مشكلة ؟ ، الـكون والفناء ، الصنع والصانع . أيتها الشمس المشرقة هل فيك أسرار الوجود ، ولـكن أنت أيضا يتحكم فيك قانون الحياة والموت فتشرقين وتغربين ، حياتك وموتك يدوران ، ولـكن سيأتى اليوم الذى تفنين فيه ، فموتك اليومى إعداد لموتك الأخير .

أيتها النسائم هبى على الجبال والأودية طيبة رقيقة ، واحملى فى ثناياك للناس سر الوجود . قد طال العهد على جزيرة العرب وهى غارقة فى الحيرة والضلال . . قد طال العهد على النصارى فى بيعِهم وهم يعبدون الأيقونات والصور . . قد ضَلَّ شعب بنى إسرائيل فغيَّرَ و بَدل . . قد عبد الفُرْس فى شرق الأرض النار والطاغوت .

أيتها النسائم هبى على الوجود رحمة وضياء وخطى للإنسان طريق الخالدين . . ولو بعد هذه الحياة . . أى تفسير للإنسانية إذا كان منتهاها الموت ! ! وأى أمل للإنسان فى الإنسان إذا كان منتهاه الفناء بعد أعوام قصار ؟ . فلتكن إذن بدونك أيتها النسائم مأساة نرسمها على مسرح الوجود نصَوِّر فيها آلامنا ، فإنها ليست إلا ثمة آلام فحسب ، وتلك المأساة أملنا فى وسط تلك الآلام ، إنا نرى فيها بؤسنا فنسكن

إليه ، ونعهد فيه قصر الحياة . . وأى شىء يُسرى عن النفس آلامها أكثر من تصويرها لتلك الآلام وتحليلها . . . إيه أيتها النسائم مرى علينا وابعثى بترياقكِ الشافى . . وسكنت كائنات الحياة . . فى ظلمات ليل أدلجت ظلماته ، وانتشرت سجفه . . لقد مرت النسائم ، نسائم الوحى من أعلى السماء إلى جبال « فاران » حيث كان هناك رجل ينتظر ، ينتظر طويلاً ، فمست قلبه واستكنت فيه ،ثم نقشت على صدره سر الوجود ، وسر الممات ، وسمعت قريش صوت محمد من على الصَّفا يناديها ويدعوها : إنى أنا محمد بن عبد الله ، رسول الله وعبده ، أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد ، أحمل إليكم من بديع الأرض والسموات مصائركم وغاياتكم ، وأقدم لكم من لُدنه غاية تلك المعالم ونهايتها ، وما استمع إليه إلا امرأة وفتى . أما الآخرون الذين تلمسوا سر الوجود ، فلما جاءهم ولوا مُدبرين .

— ٣ —

الأصنام تنتشر هنا وهناك فى رحبة البيت العتيق . . ولكنها تبدو اليوم باهتة ساهمة عليها قَتَرَةٌ مرعبة . . قد خال القرشيون هذا حين دخلوا بيت الله . . وطالعتهم وجوه تلك الأصنام . . وكانت تشبه وجوهم فى هذا اليوم .

إن قترة وسهوما يعلوها وحيرة ترتسم عليها وتسمها بميسمها . . واجتمعت قريش تنظر فى هذا الحدث الأعظم الذى نزل بساحتها . . قد كشف محمد عبد الله غرورهم وضلالهم ، ولكنهم تمسكوا بهذا الضلال وهذا الغرور . . قد أبان لهم أن هذه الأصنام لن تغنى من الله شيئا ؛ ولكنهم تعلقوا بها فى ضياعها ضياع سلطانهم وملكهم ، وكان أكثرهم عداوة لرسول الله « سعيد بن العاص » كان يفكر ، كيف يضل محمد بن عبد الله — وهو فى أعلى الذرى من قريش — قريشا عن آلهتها . . كيف ينكر اللات والعزى . . وكيف يسلبهما هذا الملك الذى لهما . . واصباح قريش إن نجح فى دعوته . . ثم إنه يحدثهم عن مصائرهم عما بعد الحياة من حياة ، وما فى

تلك الحياة من عذاب لمن طغى و بغى ، ومافى تلك من ثواب لمن اتقى وعمل صالحا ؛ وحياتهم كلها طغيان و إرهاب ، أبدا إنهم لن يؤمنوا برسالته ، ولكن أنت يا أبا أحيحة شرا مستطيرا عليه . . وتدور الأيام ، ومحمد رسول الله يدعو فى منعة من قومه بنى عبد مناف يسفه آلهتهم و يسخر من دينهم ، وأبو أحيحة سعيد بن العاص دائب على عداوته . . وعاد يوما إلى بيته والتمس أولاده فوجدهم جميعا ما عدا أكبر أولاده خالد بن سعيد فسأل عنه فلم يجب إخوته . .

— ٤ —

إيه يارسالة الله . . أى قلوب تفتحت إليك وأى عقول آمنت بك ، أنت الحقيقة التى خفيت عن الناس أمادا طوالا . . إيه يارسالة الله أى عقبات تعترض طريقك وأنت تكنسين من الدنيا قاذوراتها لتعود إلى فطرتها الأولى التى فطر الله . . إيه يارسالة الله حدثينى من آمن بك فى فجر عهدك وأنت تحملين للبشرية جوهر البشرية

وفى شعاب من شعاب جبل مكة انتظمت صلاة أبدية يقوم بها النبى الأعظم وقد وقف وراءه امرأة وفتى . .

أما المرأة . . . فكانت خديجة بنت خويلد .

وأما الفتى . . . فكان على بن أبى طالب .

وهذا هو المجتمع الإسلامى الذى أشرق عليه النور والدنيا كلها فى ظلام والذى تفجر عليه ينابيع الحق ، والباطل يسود الكون كله .

إنهم صور الجلال الذى لاينقضى ومثال الجمال الحق الذى لايزول ، إليه تقبل الإنسانية حين يظلم عليها الكون . . و إليه يهرع الظامئون يرتوون من نوره . .
إنه المجتمع الخالد . . الذى تشرق خلسات النور على الناس منه فينعمون بها و يمرحون فى رحابها . إنه المجتمع الإنسانى الخالد الذى أضاء نوره وديان جزيرة العرب ثم أضاء العالم بأجمعه فأسعد الأشقياء ومحا بؤس البائسين . إنه المجتمع الإنسانى الذى أطل الله

عليه وظللته ملائكته ، إنه استعان بقوة الله على قوة البشر ، واستعان البشر بقوتهم عليه . . فماذا كان ؟ . . ندع التاريخ يقص . .

قد آمن أبو بكر — بن قحافة — تاجر قريش وعالم أنسابها . وتسامع القرشيون فكأن النار الموقدة تحرق أفئدتهم إحراقا فازداد المجتمع الإسلامى الأول عضوا . . فتكون المجتمع من سيد الأكوان وانتظم وراءه :

امرأة ،

وفتى ،

ورجل .

واحتمل هذا الرجل من آلام قريش وعدوانها مالم يتصوره عقل ، ولكنه آمن ولقد فهم منذ أول يوم أن الإيمان بذل وفداء ، فبذل وفدى . . فخط لنفسه صحائف الخلود الباقيات . وآمن زيد بن حارثة مولى رسول الله . . فزاد المجتمع فردا آخر — كتب الله له بعد الإمارة على جيش المسلمين ، آمن رجل ثالث هو « خالد بن سعيد ابن العاص » فوامصيبة قريش إن علمت — قد آمن ابن أبى أحيحة سيد بنى عبد شمس . كيف آمن وأسلم . . فلندع التاريخ يقص .

كان أبو أحيحة أشد الناس على المسلمين وقد جمع أولاده يوما وسار إلى المسجد وفى المسجد سمع خالد بن سعيد أخبار محمد بن عبد الله ودعوته فأصاخ بقلبه واستمع ثم عاد مع أبيه إلى بيته . ونام أولاد أحيحة جميعا ماعدا قلبا واحدا ، كان يفكر فى هذا الليل البهيم ويطيل التفكير . يرى عداوة قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأليب أبيه عليه ويرى تسفيه محمد لهذه الأصنام التى لاتضر ولاتنفع — يا لها من حيرة تأخذ عليه كل مأخذ ويغمض الكرى أجفانه أخيرا . . ولكنه يشعر أنه مازال مستيقظا ، ويرى أنه واقف على شفير نار لاحدود لها ولا آفاق — ويرى أباه يدفعه إليها — ولكن مالبث أن أخذ رجل بحقوريه فلا يقع فيها ، أما هذا الرجل فكان سيد بنى عبد مناف « محمد رسول الله » وقام خالد فزعا يصيح : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق .

ثم يخرج هائما وتشاء إرادة الله أن يقابل أبا بكر فيخبره بشكوك نفسه وما رآه فى نومه فيقول له أبو بكر — أريد بك خيرا — هذا رسول صلى الله عليه وسلم فاتبعه — فإنك ستتبعه وتدخل معه فى الإسلام الذى يحجزك من أن تقع فيها وأبوك واقع فيها .

ويسرع خالد إلى رسول الله بأجياد ويقول له :

— يا محمد إلى ما تدعو ؟ .

— إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده .

— فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

ولكم كان فرح رسول الله بإسلامه شديدا . وعلمت قريش ومر ذو التاج فى حلقاتها فلم يجرؤ أحد على إخباره . . فسأل أولاده عنه ، وألح فى السؤال ، وأخيراً علم أبو أحيحة أن خالداً أسلم ، فاظلمت الدنيا فى عينيه . . وكان هناك فى شعاب من الجبل سيد الأكوان ووراءه :

امرأة ،

وفتى ،

ورجال ثلاثة : أبو بكر وزيد وخالد .

هذا هو المجتمع الإسلامى الأول الذى فاض على الدنيا جلالا وحقا .

— ٥ —

« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

أسلم خالد وآمن . . كاد يفقد أبو أحيحة رشده . . ثم صاح فى أولاده فوقفوا صامتين : « إلىّ بخالد » فذهب أولاده فى طلبه ومعهم مولى أبى أحيحة رافع . .

وفى شعاب الجبل كان المجتمع الإسلامى العظيم منتظما وسكت الإخوان حتى أتم الرسول وصحبه صلاتهم ، فنادوا أخاهم وأخبروه بأن أباه يريد رؤيته فاستأذن خالد

من رسول الله وسار معهم . ووقف أبو أحيحة كالوحش الكاسر يزمجر ويرعد ، تنهمر سيل شتائمه ، ثم يهجم على ولده بمقرعة فى يده فيشج رأسه شجاً منكرا . . وخالد هادىء ودمه ينهمر . . وأخيراً سأله الرجل :

— اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم .

— فقد صدق الله واتبعته .

فصاح فيه أبو أحيحة : اذهب يا لكع حيث شئت فوالله لأمنعنك القوت .

— إن منعتنى إن الله يرزقنى ما أعيش به . . .

فطلب من أولاده أن يخرجوه فأخرجوه ، ثم قال لهم :

— لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به .

وانصرف الشريف القرشى إلى رسول الله آمناً مطمئنا — وإنه ليعلم أنه ليس له من المال إلا مال أبيه . ولا من موارد العيش إلا أملاك أبى أحيحة . . فماذا يفعل الشريف المترف ؟ لن يفعل إلا ما يقدره الله . وليحدث له ما شاء الله أن يحدثه وليصبر صبر المؤمنين . . والتزم خالد رسول الله يسير معه حيث سار ويلتمس منه القوة على الخلق أجمعين . . يمضى معه حيث مضى ويقيم معه حيث يقيم . . قد هام قلبه بالجلال فهام به ولم يعد فى قلبه موضع لحياة أو لعيش . .

وأحس أبو أحيحة أن ابنه ما زال يحيا ويعيش ، فدعا أولاده ومواليه وطلب إليهم أن يأتوا به ، فأتوا به . . فحبسه الأيام الطوال فلم يهن ، فمنع عنه الطعام والماء ثلاثا فلم يهن ، فوضعه فى حر مكة ثلاثا ما يذوق ماء فلم يهن فأعاده إلى الحبس . . ولكن خالداً تلمس السبيل حتى خرج واختفى فى نواحى مكة . . وأذن رسول الله لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر فى الهجرة الثانية فخرج مع زوجه إلى الحبشة .

— ٦ —

علم « ذو التاج » بهجرة ولده . . وكم غاظه أن يقف خالد فى وجه كبريائه ؛ تلك الكبرياء التى لم تَذِلّ قط — أذلها خالد بإيمانه — وكم كان يشعر أنه ضئيل بجانب هذا العزم الخارق . . ولكنه لم يكن يعلم أن خالداً التمس من موطن النبوة من القوة ما تتزلزل به الجبال ولا يتزلزل . . شعر أبو أحيحة بانتصار ابنه عليه . . انتصار ابنه عليه فى كل مواقفه معه ، انتصر عليه يوم منعه المال والحياة فلم يأبه ، وانتصر عليه يوم حبسه ، وانتصر عليه يوم أجاعه فلم يأبه — والنصر لا يكون مادياً فحسب — بل قد يكون من النصر المعنوى ما يزلزل أشد الناس طغياناً . أحس أبو أحيحة بكل هذه المعانى — فقال : لأعتزلن فى مالى لا أسمع شتم آبائى ولا عيب آلهتى ، وهو أحب إلى من القيام مع هؤلاء الصباة ، ثم هجر من مكة إلى ماله بضاحية له هى الظريبة قريباً من الطائف . . . وكان فى بيت أبى أحيحة قلب آخر يفكر . . هو قلب عمرو بن سعيد ، سمع بدعوة محمد رسول الله . . ورأى إيمان أخيه بها وثباته عليها وتحمله أقسى الآلام فى سبيلها فلم يهن ولم يجزع . . رأى عمرو كل هذا فتفكر فى دعوة رسول الله فوجد فيها الحق الأبلج . . كم كان عمرو يعطف على أخيه من ناحية وعلى دعوة الإسلام من ناحية ، طالما مد يده إلى أخيه ، وطالما منع عن المسلمين الأذى — ولكن كل هذا لن يجدى شيئاً لابد من الإيمان بهذه الدعوة مهما كلفه هذا من ثمن ، و إنه ليعلم أن أباه ليحبه كل الحب و يؤثره بهذا الحب دون إخوته حتى إنه ليقول :

ألا ليت شعرى عنك يا عمرو سائلا ۞ إذا شب واشتدت يداه وسلما
أتترك أمر القوم فيه بلابل ۞ وتكشف غيظاً كان فى الصدر موجما

يعلم عمرو كل هذا — ولكن دعوة الله أحب من كل شىء — من الأب والأم والعشيرة والولد . . فما خرج أبو أحيحة إلى ماله بالظريبة حتى أعلن عمرو إسلامه — ولحق بخالد فى أرض الحبشة مهاجراً فى سبيل الله ورسوله وتلمس

أبو أحيحة أبناءه مرة أخرى وسأل عن عمرو . وأخيراً . أخبروه أنه أسلم وهاجر إلى الحبشة . فمرض الرجل مدة طويلة قال فى خلالها : لئن رفعنى الله من مرضى هذا لا يعبد إله ابن أبى كبشة ببطن مكة . ويعلم خالد بن سعيد بهذا من مهاجر حضر إلى الحبشة — يعلم خالد بن سعيد هذا فيتوجه نحو ربه قائلا :

— اللهم لا ترفعه واستجاب الله الدعاء ، فأمات أبو أحيحة ومضى إلى جهنم خالداً فيها .

— ٧ —

مات أبو أحيحة سيد قومه فخلفه فى مكان الصدارة منهم أبان بن سعيد ، وكان أبان فى حياة أبيه و بعد مماته شراً على المسلمين يصل بهم من الأذى مالا يطاق ، وكان إلى جانب هذا ينفث فى إخوته نيران الحقد على المسلمين ولكن كان فى البيت قلب يفكر . يفكر فى دعوة الله ورسالة نبيه . وفى فرصة من الفرص امتلأ القلب ضياء . فر الحكم بن سعيد بن العاص من ديار بنى عبد شمس إلى الرسول الأعظم لكى يسلم بين يديه ، ويقول له الرسول :

— ما اسمك ؟

— الحكم .

— بل أنت عبد الله .

ويدعوه الرسول إلى الهجرة فيهاجر عبد الله إلى المدينة ، وكان عبد الله يكتب فى الجاهلية . فأمره الرسول أن يعلم أطفال المدينة الكتابة ودأب عبد الله على عمله . حتى دعا منادى القتال ، والتحم المسلمون بالقرشيين فى بدر وكان بين القرشيين المشركين أولاد أبى أحيحة الذين لم يسلموا : أبان والعاص وعبيدة وسعيد .

وتنجلى المعركة عن قتل العاص وعبيدة كافرين ، وتعود قريش منهزمة ويعود أبان وفى قلبه من الحقد مالا يتصوره إنسان .

— ٨ —

وتسير القافلة شمالا وفيها عير قريش وعلى رأسها أبان بن سعيد وقد خرج تاجراً إلى الشام ، ومرت القافلة ببلاد عدة فى فلسطين حتى أناخت بجوار دير منعزل لراهب ترك الحياة الدنيا وزينتها ، ونامت القافلة جميعها . وهدأت الأصوات فى الصحراء ولكن أبان ساهد واجم لا يدرك لوجومه وسهاده سراً . فقام يتمشى بجوار القافلة فى الصحراء لعل نسمها يسرى عن نفسه هذا القلق والوجوم ، إن بينه و بين قريش آلاف آلاف الفراسخ . وفى قريش خلانه وعشيرته . آه ولكن الحبشة البعيدة . وكم يفصلها الآن عنه من آماد ، فى الحبشة خالد وعمرو ، وفى المدينة الحكم أو عبد الله كما يدعوه أصحاب محمد الآن ، تفرقوا فى كل مكان ، فيالها من مأساة تحدث الآن فى جزيرة العرب ، ومحمد ما أمره .. ألا أن أصحابه ليلتفون حوله و يفدونه بكل شىء فما سر هذه القوة الغريبة ، إنه ليعلم فى إخوته العقل والسداد فهل يعقل أن يتابعوا محمدا لو كان محمد ساحرا أو كاذبا . أبدا . ما محمد بساحر ولا كذاب ، وطالما بعث إليه إخوته يدعونه إلى الإسلام . ولكن أبان ما لبث أن تمالك نفسه حين أحس أنه يسير فى طريق الإسلام ، تمالك نفسه وهو الذى نذر حياته بعد أبيه للقضاء عليهم فشارك فى كل حرب ضدهم — ولكن شعورا خفيا يدعوه ثانية أن يفكر أن محمدا صادق . ثم يعاوده تفكيره الوثنى . وفى تلك اللحظة — لمح أبان فى البيعة الصغيرة المهجورة التى تقع أمامه ضوء خافتا وأحس بحركة خفيفة ضئيلة ثم مالبث الباب أن فتح — وخرج منه شيخ وقور . هو راهب البيعة الصغيرة ، وأخذ الراهب يصلى فى الخلاء و يتململ باكيا . وهنا ساءل أبان نفسه فى دهشة — ألا إن لهؤلاء من العلم الشىء الكثير ، ألا يستطيع هذا الرجل المتعبد الذى ترك الدنيا أن يدله على شىء سار إليه أبان — فلم يرع ولم يخف من هذا الطارق الغريب فقد تعود الرهبان منظر هؤلاء الرحالة العرب ، وحياه أبان — فلما سأله الراهب عن حاجته . قال : إنى رجل من قريش و إن رجلا مناخرج فينا يزعم أنه رسول الله أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى

فانتبه الراهب وحدق فى أبان فى عمق وقال له : ما اسم صاحبكم ؟ فقال : محمد . قال الراهب : فإنى أصفه لك ؛ وأخذ يذكر صفة النبى صفة صفة — فصاح أبان : هو كذلك .

قال الراهب : والله ليظهرن على الأرض يابنى اقرأ على الرجل الصالح السلام وبكى ثم عاد إلى صومعته .

وذهب أبان إلى الشام ثم عاد ، وقد تغير فيه كل شىء فسأل عن الرسول ولم يعد يذكر عنه ما كان يذكره أولا . وفى تلك اللحظة أقبل المسلمون لدخول مكة حاجين عام الحديبية — وحدث ماحدث من إرسال عثمان ابن عفان رسولا من رسول الله إلى مكة فأجاره أبان وحمله على فرسه وقال : اسلك من مكة حيث شئت آمنا وعاد الرسول من مكة . فلما عاد منها تبعه أبان فأسلم وآمن . وأراد رسول الله أن يبعث سرية إلى نجد فأرسل أميرا لها أبان بن سعيد .

— ٩ —

وآن لمهاجرى الحبشة أن يعودوا ، ويعود فيهم ابنا أبى أحيحة خالد وعمرو بعد أن قضيا حوالى عشرين عاماً فى مهجرهما تحمَّلا فيه ما تحملا من آلام الغربة وقلة العيش ، وقد قدما على الرسول وهو فى خيبر وفى المسلمين أخوهما أبان وعبد الله وأسهم الرسول لهما ، وقال خالد : يا رسول الله لم نشهد معك بدراً ، فقال الرسول : يا خالد أو ما ترضى أن يكون للناس هجرة ولكم هجرتان .

وفى هذه الأثناء ، هاجر سعيد بن سعيد بن العاص إلى المدينة ، مهاجراً إلى الله ورسوله ، وبإسلام سعيد أسلم أولاد أبى أحيحة جميعا وتمت كلمة ربك الحُسنى عليهم ، وانضووا جميعا تحت اللواء ، لواء رسول الله ، فيادورة القدر ! .

وخرجوا معه إلى عمرة القضاء ، ثم حين أذن الله لرسوله بالفتح وسار جيش المسلمين كان أولاد أبى أحيحة جميعا فى الكتيبة الخضراء ، كتيبة المهاجرين والأنصار . فلما فتحت مكة استعمل رسول الله سعيداً على سوق مكة ، فلما خرج الرسول إلى

حنين خرج معه أولاد أبى أحيحة وأبلوا أحسن البلاء ، وسار الرسول إلى الطائف ، والتحم المؤمنون هناك مع الكفرة التحاماً هائلا ، وهناك كتب أولاد أبى أحيحة صفحة من صفحات الفداء ، فقد قتل فى الطائف سعيد بن سعيد بن العاص .

— ١٠ —

وأقام أولاد أبى أحيحة مع رسول الله بالمدينة ، وكان خالد كاتبه وحواريه ، وقد كتب خالد له كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف ، وهو الذى سعى فى الصلح بينهم و بين رسول الله ، ثم حضروا مع رسول الله تبوك ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم تلك الصفات النادرة ، فبعث بأبان أميراً على البحرين لما عزل عنها العلاء بن الحضرى ، كذلك بعث بخالد أميراً على اليمن ، كما بعث بعمرو أميراً على تيماء وخيبر . أما عبد الله فبقى فى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر أولاد أبى أحيحة الثلاثة أمراء لرسول الله حتى رفعه إليه رب السموات .

مات خير البشر صلوات الله عليه و بكاه المسلمون ، وفى مقدمتهم أولاد أبى أحيحة أشد البكاء وتركوا إماراتهم وعادوا ، فذهب إليهم أبو بكر وقال : مالكم رجعتم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابوه : نحن بنو أبى أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله .

واعتزلوا بيعة أبى بكر ، وتخلفوا عنها وذهبوا إلى على وعثمان وقالوا لهما : أرضيتم ياعبد مناف أن يلى هذا الأمر عليكم غيركم إنكم لطوال الشجر طيبو الثمر ونحن نتبع لكم » وعلمها أبو بكر فلم يسرها فى نفسه وأسرها عمر ، وأقام أولاد أبى أحيحة ثلاثة أشهر لما بايعوا حتى بايع بنو هاشم ، فمر أبو بكر على خالد مظهرا وهو فى داره فسلم فقال له خالد : أتحب أن أبايعك ! ! فقال : أحب أن تدخل فى صلح مادخل فيه المسلمون . قال : موعدك العشية أبايعك ؛ فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه ، ثم بايعه بنو أحيحة جميعا .

وكان العرب قد ارتدوا عن الإسلام ووقفت المدينة ومكة مدافعة عن دين الله ،

وخرج « عبد الله بن العاص » وانهزم المسلمون فى اليمامة أول الأمر ثم مالبثوا أن شدوا وقاتل المهاجرون والأنصار أشد القتال وفى مقدمتهم عبد الله ، حتى تناولته الرماح ، وخط أولاد أبو أحيحة صفحة أخرى من صفحات الفداء .

— ١١ —

انتهت حركة الارتداد . . قضى عليها أبو بكر ، وعلى خليفة رسول الله أن ينشر رسالة الإسلام فى العالمين . فليبعث إذن المسلمين إلى العراق والشام وأخذ يعد الجيشين وأخذ يفكر فيمن يختاره أميرا على جيش الشام فلم ير خيرا من خالد بن سعيد ، إن أبا بكر ليدرك أن الرجل ماتخلف عن بيعته إلا لحبه لآل بيت النبوة والرسالة ، فعقد له اللواء وجاء باللواء إلى بيته ، ولكن وزيره عمرا لم يكن يغفر لخالد موقفه فى بيعة أبى بكر الذى كان يخشى منه تفريق كلمة المسلمين — فذهب إلى أبى بكر وقال له : تولى خالدا وهو القائل ماقال ؛ فلم يزل عمر به حتى أرسل أبو بكر أبا أروى الدوسى فقال لخالد : إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أردد علينا لواءنا فأخرجه خالد ودفعه إليه وقال والله ماسرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم لغيرك وبعد ساعات جاء إليه أبو بكر يعتذر ويرجوه ألا يذكر عمرا بحرف — ومازال خالد يترحم على عمر حتى مات — كانوا جميعا طلاب حق وهدى ولما عزل أبو بكر خالدا ولى يزيد ابن أبى سفيان جنده ودفع إليه لواءه — كما ولى على جيش آخر شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ، وبعث أبو بكر إلى خالد يخبره « أى الأمراء أحب إليك » لكى يسير خالد تحت لوائه ، فأجابه خالد : ابن عمى (أى عمرو بن العاص) أحب إلى فى قرابته — وهذا (أى شرحبيل) أحب إلى فى دينى — فإن هذا أخى فى دينى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وناصرى على ابن عمى .

فتأثر أبو بكر تأثرا شديداً فأوصى شرحبيل بن حسنة بقوله : « انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرفه بك من الحق لو خرج واليا عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول صلى الله عليه وسلم توفى وهو له

وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله وعسى أن يكون ذلك خيرا فى دينه ، ما أغبط أحد بالإمارة ، وقد خيرته فى أمراء الأجناد فاختار على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الصالح فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل وليك خالد بن سعيد ثالثا ؛ فإنك واجد عندهم نصحا وخيرا و إياك واستبعاد الرأى عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر ...

وهكذا سار خالد بن سعيد فى جيش المسلمين جنديا بسيطا وفى مرج الأصفر — صفت الروم صفوفها — ثم تقابلوا مع المسلمين ، واستمر القتال ، وخالد بن سعيد يقاتل يمينا وشمالا . . حتى قتل فكتب أولاد أبى أحيحة — ثالث صفحات الفداء .

— ١٢ —

وخرج عمرو وأبان فى جيش عمرو بن العاص ، والتحم المسلمون التحاماً شديداً فى أجنادين — وعمرو وأبان فى مقدمة الصفوف حتى استشهدا — وكتب أبى أحيحة الصفحات الرابعة والخامسة من صفحات الفداء .

— ١٣ —

وآذن موعد الحج ، واستدار العام . . وسار المسلمون إلى مكة و بعد أن أتموا مناسك الحج ، اجتمعوا حلقات فى البيت العتيق كل حلقة تردد اسم الله الواحد ، وقد أصبحوا جميعاً فى الله إخواناً متحابين ، وتلفّت الناس إلى حلقة بنى عبد شمس فلم يروا أولاد بنى أحيحة ، قد خلا منهم وادى الحياة .

وأخذ الناس يتذاكرون صحائف الناس ، فمن الناس من تبلى صحائفهم ما تبقى أبد الآبدين ، أولئك أولاد أبى أحيحة ، إلا أن صحائفهم صحائف جهاد واستشهاد ، أقبلوا على الإسلام والدنيا عنه فى إدبار ، فجاهدوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام فى إقبال فماتوا واستشهدوا

ومرّ فتيان بنى عبد شمس على ضاحية أبى أحيحة ، هنا مرتع الأبطال الميامين ، هنا درج طفولتهم ، هنا كم ترددت أنفاس الخالدين ، وأنصت فتيان عبد بنى شمس ..

وهبّ النسيم نديًّا .

وتردد نغم حزين ..

أين هم .. أين هم ..

فى عيشة راضية ، فى جنات عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ..

وسكن النغم ..

سعد بن عبيد

عالم الإســـــلام العظيم

— ١ —

ودوى الصوت الجميل العذب ، مخترقا السكون الشامل واستمعه الأوس النائمون فتقلبوا على فرشهم ، ثم استيقظوا واحدا بعد واحد يستمعون إلى الترتيل الحنون . الترتيل الذى يحمل إليهم آيات الله تلك الأنغام الملكوتية التى تقدس جمال الحق الأعلى . وأخذ الصوت يرتفع شيئا فشيئا حتى ملأ الوادى ، وأصاخ الأوس أسماعهم ومضى الصوت يستكن فى الأعماق ، وأحسوا بسموهم عن هذه الأرض وعن تلك الأجساد ولم يعودوا إلا فكرة روحية خالصة . ونادى هذا الحنون لصلاة الفجر فنفروا جميعا ، والتأموا فى صفوف ثم طلع عليهم من بيته فأدى بهم الصلاة .

ذاك . . هو سعد بن عبيد الله بن النعمان الأوسى « القارىء » ولم يكن من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه من يسمى بالقارىء غيره . وقد اعتبرته الأوس فخرها التى تتيه به على الناس ، ويزيد فى هذا الفخر ماتقصه علينا السير من « أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول » وقد أقره الرسول على الإمامة فى مسجد قباء ، ثم أقره أبو بكر بعد الرسول ، وعمر بعد أبى بكر .

ولم يقصر عالم الإسلام العظيم فى الدفاع الإيجابى المسلح ، فخرج إلى بدر و إلى أحد وقاتل فيهما أعنف قتال ثم لم يفته مشهد من المشاهد مع رسول الله ، ولم يقعد عن حرب المرتدين فى عهد أبى بكر بل شارك فيها كلها .

ولكن كان المسلمون يخشون أن يصيب « عالم الأوس » فى تلك الحروب الموت فينتهى من لم تر له الدنيا مثيلا ، ولكن ما كان لحامل القرآن أن يخشى الموت فى موضع من المواضع ، وما كان له أن يكون مع القاعدين .

— ٢ —

وتمت كلمة ربك الحسنى على جزيرة العرب ودانت بالإسلام جميع أراضيها ، ثم مضت جيوشهم مجتاحة الأرض التى وعدهم الله — أرض كسرى وقيصر — وخرج سعد بن عبيد القارىء فى جيوش العراق ، يبصر المسلمين بأمور دينهم ويحكم فى أقضيتهم فإذا ماجن الليل ، عاد إلى قرآنه . وإذا ما أقبل النهار استل سيفه وشارك فى الضرب والطعان ؛ ومضى المسلمون من نصر إلى نصر حتى هذا اليوم المشئوم ، يوم الجسر الرهيب ، على ماء دجلة ، حيث قطع أحد المسلمين خطأ هذا الجسر وسقط المسلمون أفواجا ، وفر منهم من فر وقتل قائدهم أبو عبيد الثقفى ، وكان من بين الفارين الذين أفزعهم هول القتال سعد بن عبيد القارىء « عالم الأوس » الذى ما وهن قط فى دين الله يوما من الأيام — وما تأخر عن واقعة قط من المواقع . . . فياحسرة السماء على الأرض .

— ٣ —

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . »

النفس اللوامة . . . آه من تلك القوة الآمرة المسيطرة التى تشتعل فى أعماقنا وتسيطر على كياننا ، تفتش عن خطيئاتنا ثم تحاسبنا عليها أعسر حساب وأعنفه ، فتحيل أماسينا جحيما لا يطاق، وأيامنا عذابا عنيفا مرا .

آه .. من هذا الهاتف الداخلى الذى يقلق المضاجع ويذهب الرقاد ويترك الإنسان فريسة لأشد اللوم — فيمضى الليالى ساهرا ويتملكه الإرهاق فيسلب منه بهاء الحياة ونضارتها .

آه من هذا الصوت المعنوى الذى يسيطر على ماديات الإنسان فيسلبها الحركة ويدفعها إلى الجمود ، ويبعث قنامة وسكونا .

كم استمع إلى كل هذا سعد القارىء .. الهائم فى تلك الصحارى الممتدة الواسعة

فلا يجد ظلا من ظلال الهدوء تركن إليه تلك النفس الأبية الكبيرة ، يستمع إلى تلك الآيات البينات التى تحدثه عن تلك النفس فيفكر و يلج فى التفكير .

— ٤ —

وتقابل الرجلان أخيراً — عمر بن الخطاب وسعد القارىء ، وفى وجه أولهما علائم العتاب أن هرب من ميتة الحق عابد من عباد الحق ، وفى وجه ثانيهما سمات الأحزان أن ضل مبادىء قدسية طالما علمها أهل الأرض الضالين . . . ولم ينبس أحدهما بشفة .

ثم تقابلا مرة أخرى . . وكان الخليفة وقتئذ يوجه جيشاً إلى الشام فقال لسعد : « هل لك فى الشام فإن المسلمين قد نزفوا به ، و إن العدو قد ذئروا عليهم ، ولعلك تغسل عنك المنية » . ولكن سعداً لا يريد أن يحارب إلا فى الأرض التى هرب منها فقال : « لا ، إلى الأرض التى فررت منها والعدو الذين صنعوا بى ما صنعوا » .

وفى هذا دليل على ما كان يعتلج فى نفس هذا العالم العظيم من عذاب الضمير . وسار سعد القارىء بعد أيام قليلة فى جيش الصحابى العظيم سعد بن أبى وقاص الذاهب إلى فارس .

— ٥ —

كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة المسيحى قد نفر لقتال المسلمين بأمر كسرى ، وفى منطقة الحيرة البيضاء وقف يخطب فى جيوشه الجرارة حتى جاءه صاحب حرسه عمه إلياس يخبره أن بالباب رسولا من قبل المسلمين . قال له : « أيها الملك ، إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولا » قال : — ائتنى به .

ودخل الرسول ، وكان سعد بن عبيد القارىء — فصاح به الحجاب : « الأرض للملك » ولكن سعداً لم يلتفت إليهم بل سار مرفوع الرأس وسط الحرس ، ثم قال بصوت جوهرى : « إن الله أمرنا أن لا يسجد بعضنا لبعض ، ولعمرى إن هذه كانت العادة المعروفة فى الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ،

فلما بعث جعل تحيته السلام — وكذا كانت الأنبياء من قبل والسلام من أسماء الله تعالى ، وأما تحيتكم هذه فهى تحية جبابرة الملوك » .

فقال النعمان : « لسنا من الجبابرة بل نحن أجل منكم لأنكم توحدون فى دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم » . فقال سعد : « أخبرنى عن عيسى بن مريم أ كانت القدرة فيه حالة أم ربانية » . وقامت بينهما مناقشة طويلة فأعجب النعمان بكلام سعد إعجاباً شديداً ، ولكن عظمة الملك حالت بينه و بين الإسلام فقال له : ويح قومك ما الذى جئت لأجله ؟ قال :

— « إن الأمير سعد بن أبى وقاص وجهنى إليك إذ أنت من العرب و يصل إلينا ما يقضى عليك ، وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يتبعونها نحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكم ما لنا وعليكم ما علينا — فإن أبيتم فأدوا الجزية ، فإن أبيتم إلى ما دعونا كم فأنذروا بحرب من الله ورسوله » . فضحك النعمان مستهتراً وقال : « لقد حدثتكم أنفسكم الأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم ، لا . . وحق المسيح إن هؤلاء أثبت جناناً وأشد طعانا وأوسع ميدانا — فليت شعرى من نفخ فى معاطسكم وحسن الأمل فى أنفسكم حتى جئتم من قحط البلاد ترومون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة ودونه حرب تصطفق أحرامه ، وتشب ضرامه . وهذا الملك أزدشير قد أنفذ جيوشه وعساكره وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم ما يؤملون وما حدثتكم به أنفسكم تزيلون من قلوبكم » .

فقال سعد : « يا نعمان ، لقد تشدقت بالباطل ، وتنوهت بكلام غير عاقل ؛ أما علمت أن العاقبة للمتقين ، والله بكرمه يرفع عنا البأس و يظفرنا بجميع الناس ؛ وقال نبيه صلى الله عليه وسلم : ستفتح على أمتى كنوز كسرى وقيصر ، فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا ، وقد بقيت كنوز صاحبك » .

فقال النعمان : « من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه ، وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ » .

فقال : قد بصره الله بالعلم فى القدم ، وعلمه ما كتب فى اللوح المحفوظ بالقلم .

فلما سمع النعمان ذلك قال : « يا ويح قومك إلى قلوس فليس عندنا جواب إلا بالسيف .

فركب سيفه وعاد فأخبر ابن أبي وقاص ذلك ، ورتب سعد بن أبى وقاص وجعل سعد القارىء قائداً للميمنة ؛ وابتدأ القتال العنيف ومامضى إلا قايل من الزمن حتى انهزم ملك الحيرة وقتل وفرت جيوشه .

— ٦ —

وكانت القادسية وأيامها العنيفة ، وصبر الجيشان ليلتين . . وفى الليلة الثانية وقف سعد بن عبيد القارىء يخطب فى المسلمين واجتمع المسلمون على صاحب رسول الله فقال :

— إنا ملاقو العدو غداً ، وإنا مستشهدون فلا يغسلن عنا دماً ولا نكفن إلا فى ثوب كان علينا » .

وفى الليلة الثالثة ليلة الهرير المشهورة انتصر المسلمون الانتصار الحاسم فى تاريخ العالم كله . . .

ولكن دفعوا ثمن هذا النصر سعداً القارىء وغيره من أعاظم المسلمين الشهداء .

شهداء اليمامة

« يا أرض اليمامة .. كم نام فى أعماقك من حملة القرآن ، حملة الكتاب الأزلى ، كم رددوا آياته الغر البينات ، فحملتها النسائم صاعدة إلى السموات العلا ، استمعت الملائكة من عوالمها الأخر إلى ترتيلاتهم العذاب ، وخشعت الكائنات لأمجادهم النورانية ، ثم ناموا فيك — يا أرض اليمامة — شهداء . . . »

— ١ —

الفارسان

فارسان . . مهاجر وأنصارى . . « عكاشة بن محصن » من بنى غنم بن دودان من قريش ، فتى من أجمل الفتيان وأكثرهم أناقة وظرفاً . . وفارس لم تعرف له قريش مثيلا . .

هاجر عكاشة إلى المدينة ، وحضر المواقع كلها مع رسول الله ، بدراً وأُحُداً وغيرها لم يتخلف عن واحدة منها ، وما أكثر ما شهدت صحارى العرب ، صولة فارس قريش يحطم الشرك فى كل مكان ، و بعثه النبى إلى الْغَمْر على رأس فرقة مكونة من أربعين رجلاً ، فهاجم المكان ففر أهله فاستولى عليه عكاشة .

هكذا كانت حياة فارس قريش فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

« ثابت بن أقرم » الأنصارى وأحد أنجاد العرب الممتازين ، وفارس يثرب العظيم ؛ حارب فى جميع المواطن ، وقاتل أشد قتال .

ارتَدَّت العرب عن دين الله ، واستنفر الخليفة هؤلاء الذين آمنوا وثبتوا كالجبال على دينهم .

وخرج خالد بن الوليد لقتال طلحة بن خويلد الأسدى ، وخرج معه الفارسان عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم : الأول على فرس يقال له الرزام ، والثانى على

فرس يقال لها المحبّر . وقد أرسلهما خالد يستطلعان له الأخبار ، فتقابلا مع طليحة وأخيه سَلَمَة ، وكانا أيضا طليعة للمشركين .

وقد عاجل سَلَمَة المشرك الفارس العظيم ثابت بن أقرم فقتله ، ولكن عكاشة سرعان ما استعاد جأشه أمام هذه المفاجأة غير المنتظرة ، وهاجم طليحة هجوماً عنيفاً حتى هَمَّ بقتله ، فصاح طليحة بأخيه — أعنى على الرجل — فإنه قاتلى ، فكَرَّ سَلَمَة على عكاشة وقتلاه جميعا ، ثم رجعا إلى من وراءهما من الناس فأخبراهم فسر عيينة بن حصن ، وقال : هذا الظفر .

وأقبل خالد بن الوليد ومعه المسلمون فإذا بثابت بن أقرم قتيلا تطؤه المطى ، فعظم الأمر عليهم ، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وجدوا عكاشة ، وطلع خالد بعد قليل ، فأمر أن يحفر لهما ، ودفناهما بالثياب

وناما فى أرض اليمامة . . فى سبيل الدين الذى اعتنقاه ، ووهبا له كل شىء .

— ٢ —

زيد بن الخطاب

نشأ زيد مع أخيه عمر أحسن نشأة وأقومها ، ولكن زيداً كان أرق قلباً ، وكان مع ذلك أسن من أخيه العظيم ، وكان رجلا طويلا بائن الطول أسمر ، وقد أسلم زيد قبل عمر ؛ وهاجر عمر إلى المدينة ، وآخى الرسول بينه و بين معن بن عدى ابن عجلان الأنصارى ، وشارك فى بدر أعظم المشاركة ، ورآه عمر فى بدر لا يلبس درعاً ، فخلع درعه وقال له : أقسمت عليك إلا لبست درعى ، فأخذها زيد ولبسها ثم نزعها فقال له عمر :

— ما بالك ؟

— إنى أريد بنفسى ما تريد بنفسك .

وتلك صورة من أعظم صور الإيثار . . وخرج زيد فى كل قتال .

وفى اليمامة ، فى قتال بنى حنيفة ، ارتفع اللواء ، اللواء الأعظم ، وقد كاد

المسلمون أن ينهزموا حتى غلبت بنو حنيفة المسلمين أول الأمر ، ولـكن زيداً أخذ يجالد ويستبسل ثم قتل الـكثيرين ، وقتل الرحال بن عنفوه ، وكان الرحال قد أسلم وهاجر وقرأ القرآن ثم سار إلى مُسيلمة مرتداً ، وأخبر بنى حنيفة أنه سمع النبى يقول إن مسيلمة شريك معه فى الرسالة فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة ، فقتله زيد شر قتل ، ثم رأى زيد هزيمة المسلمين .

فحمل راية الحق المبين وهو يقول : أما الرجال فلا رجال ، ثم صاح بأعلى صوته : « اللهم إنى أعتذر إليك من فرار أصحابى ، وأبرأ إليك مما جاء به مُسَيْلمة والحـكم ابن الطفيل » .

وحمل العلم خفّاقاً ، وهو يتقدم فى سرعة نحو العدوّ ، وهو يضرب بسيفه يميناً وشمالاً حتى قُتِل .

* * *

وصل الخبر إلى ا نة ، وعلم عمر فحزن أشد الحزن وقال : « رحم الله زيداً ، سبقنى إلى الحسنيين ، أ م قبلى واستشهد قبلى » .

* * *

وما زال عـ ا ليم يذكر أخاه فى حزن دونه أى حزن ، وكثيراً ما كان يردّد « إن الصَّبا لتهـ ـاتينى بريح زيد بن الخطاب » .

وقد انتصر المسلمون بعد ذلك ، وأسلم من بقى من بنى حنيفة ، وجاء قاتل زيد أبو مريم الحنفى لمقابلة عمر ، فقال له عمر :

— أقتلت زيد بن الخطاب .

— أكرمه الله بيدى ولم يهنى بيده .

— كم ترى المسلمين قتلوا منكم يومئذ ؟ .

— ألفاً وأربعمائة ، يزيدون قليلا .

— بئس القتلى

— الحمد لله الذى أبقانى حتى رجعت إلى الدين الذى رضى لنبيه عليه السلام وللمسلمين

ويقابل عمر متمم بن نويرة وكان قد قتل أخوه مالك بن نويرة مشركا . فيقول له عمر :

— ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن ؟.

— كانت عيني هـذه قد ذهبت — وأشار إلى عينه — فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع ، فقال عمر : — إن هذا الحزن شديد ما يحزن هكذا أحد على هالـكه .

وصمت عمر قليلا ثم قال « يرحم الله زيد بن الخطاب ، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على قول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك » . فقال متمم : يا أمير المؤمنين لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيته أبداً » . فتعزى عمر حينئذ ، وكف عن الحزن والجرى على أخيه .

— ٣ —

معن بن عدى

أحد سادة يثرب . شهد العقبة مع السبعين من الأنصار . وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام ،وكان هذا دليلا على الشرف العالى بين قبائل العرب . لم يفارق الرسول فى حروبه ، وقد آخى بينه و بين زيد بن الخطاب حتى فنيا فى صداقتهما وحبهما .

ومات الرسول ، و بكاه الناس وكانوا يقولون : والله نوددنا أن متنا قبله نخشى أن نفتن بعده . فقال معن : « إنى والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً » .

واجتمع الأنصار فى سقيفة بن ساعدة يريدون أن يجعلوا الخليفة من بينهم . وأسرع أبو بكر وعمر يريدانهم فقابلهم معن وقال لهم : « لا عليكم أن لا تقربوهم ، واقضوا أمركم » . أى طلب منهم ألا يصطدما بالأنصار . وأن يرتبا أمرهما مع بقية المهاجرين حتى لا يحدث صدام إطلاقاً .

وفى اليمامة . شهد معن مقتل صديقه زيد . وهو يصيح طالباً من المسلمين الثبات . وثبت معن حتى قتل .. ونام مع صديقه نومتهما الأبدية .

— ٤ —

سالم مولى أبى حذيفة

اختلف فى اسمه ، فيقال له سالم بن عتبة بن ربيعة ويقال له سالم بن معقل وقد اختلف فى أهله . ويبدو أنه من أهل اصطخر . فهو على هذا فارسى . وسالم يعتبر أنصارياً من ناحية أنه عتيق لثبيتة بنت نصار الأنصارية من بنى عبيد ، ويذكر فى المهاجرين لموالاته لأبى حنيفة . ومن المحتمل أن يكون هذا الاختلاف فى نسبه ناشئاً عن زواج ثبيتة بأبى حذيفة ، فلم يعرف مولى أيهما ، ومهما كان الأمر فقد كان يسمى سالم بن أبى حذيفة ، وأحياناً كان يطلق عليه « سالم بن الصالحين » وقد تزوج من فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة .

هاجر سالم إلى المدينة واجتمع المهاجرون بقباء ونودى للصلاة ، وكان فى المسلمين يومئذ سادة المهاجرين عمر وأبو سلمة وغيرهما ، ولم يتقدم أحد منهم للإمامة . ولكن سالم تقدم وصلى بكبار الصحابة إماماً .

وكان النبى يقول : « خذوا القرآن من أربعة وكان سالم أحدهم ، وكان صوته جميلا ، وقال له النبى : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك » .

* * *

وفى يوم اليمامة انكشف المسلمون وتقدم زيد بن الخطاب براية المسلمين ثم قتل ، وسقط اللواء ، فحمله سالم فقال له المسلمون : يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قبلك فقال : بئس حامل القرآن أنا ، إن أتيتم من قبلى . واستمات فى القتال وفى يده راية المهاجرين ثم قال : « ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله » فحفر لنفسه حفرة كخندق ، وقام فيها يقاتل .

وقطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره فاعتنق اللواء وهو يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير » حتى سقط فلما صرع قال لأصحابه : « ما فعل أبو حذيفة » قيل له : قتل

وسأل عن صحابى آخر ، فقيل له : إنه قتل . . فطلب من المسلمين أن يضجعوه بينهما ونام سالم . حامل القرآن بعد أن ضرب للمسلمين أعظم المثل .

* * *

لم ينس عمر العظيم « سالم » فحين أقبلت عليه سكرة الموت قال : « لو كان سالم حياً ما جعلتها شورى » أى كان يصدر عن رأيه فيمن يوليه الخلافة .

أى مقام كريم كان لك ياسالم فى الصالحين ، وأى مقام كريم لك فى أعمال الجنان

— ٥ —

شجاع بن وهب

« شجاع بن وهب » من بنى غنم بن دودان كان يكنى « أبا وهب » وكان نحيفاً طويلا ؛ هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، وآخى الرسول بينه و بين أوس بن خولى .

كثيراً ما أمره الرسول على فرق من المسلمين فهاجم المشركين فى وقائع كثيرة فى هوازن وغيرها ، فأصاب من الغنائم أعظمها .

و بعثه النبى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وكانوا بغوطة دمشق فلم يسلم . وأسلم حاجبه مرى ، و بعث إلى النبى مع شجاع يقرئه السلام ويخبره أنه على دينه . وشهد شجاع بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها ، كما شهدها أخوه .

وفى اليمامة . . دافع شجاع دفاع الأبطال حتى سقط شهيداً كما سقط أيضاً نزيد بن قيس وغيرهما من حملة القرآن وأئمة الصحابة .

* * *

يا أرض اليمامة . . كم نام فى أعماقك من حملة القرآن . . حملة الكتاب الأزلى ، كم رددوا آياته الغر البينات فحملتها النسائم صاعدة إلى السموات العلا ، استمعت الملائكة من عوالمها الأخر إلى ترتيلاتهم العذاب ، وخشعت الكائنات لأمجادهم النورانية . . ثم ناموا فيك — يا أرض اليمامة — شهداء .

شهيد نهاوند الأكبر..

« وفى سهل فسيح ممتد ، حيث انتصرت أشجار مفرعة الأغصان ، وشجيرات الورد والرياحين هنا وهناك نام النعمان ابن مقرن نومته الأبدية ، ونام معه جنوده الشهداء ، فإذا ما أقبل الربيع واخضرت الأغصان ، وتفتحت الأزهار ذات الأرج ، ومر النسيم من بينها يردد — فى جمال السحر — أنشودة طالما رددها ابن مقرن ، يستمع إليها رواد الروضة الفيحاء ، أنشودة القوة المنبعثة اللامحدودة التى تخطت المحدود فمنحت لها أوجه الحياة ، ثم عافت عيشنا الخابي وهامت بالخلود ، باللامحدود الدائم السرمدى ؛ فهتفت به على نجاد نهاوند وسهولها فاستجاب النداء »

— ١ —

أمير مُزَيْنَة

دعا الرسول الأعظم إلى هذا الفيض النورانى الذى أتى به فأسرعت أقوام إليه وأدبرت أقوام ؛ وانطوى تحت لوائه ملأ ، وعاداه ملأ ، وفى ساعة من تلك الساعات العنيفة الجرباء التى مرت برسول الله ، ثار الغبار حول المدينة مؤذناً بخمس قوى من الفرسان ، وانتظر صحابة رسول الله انجلاء الغبار حتى يتبينوا حقيقة القوم وقد انتضوا سيوفهم انتظاراً للغزاة القادمين ، وأصاخوا السمع ، وأطالوا فى الإصخاء حتى يتبين لهم الأمر ، إذ استمعوا إلى أناشيد القادمين ، فإذا هى تكبيرات وتسبيحات ، ترتفع فى قلب هذه الصحراء الممتدة القائمة حول المدينة من مختلف شعبها ووديانها ، ولكن مَنْ هؤلاء المستجيبون لله ورسوله ، الساعين فى السحر نحو فيض النور الذى انبثق من ابن عبد الله مبشراً بالحقيقة الخالدة التى تنكبها الضالون ، وأخفاها المضلون ، تحت ستار من الطلاسم والخرافات . . مَنْ هؤلاء الموقنون بالحق ، الضاربون تلك السجف الغلاظ التى رانت على قلوب عُبَّاد الشهوات وأحلاس الزنا ، ورائدى المنكرات . . من هؤلاء ؟ .

انجلى الغبار أخيراً . . عن أر بعمائة فارس وفى مقدمتهم فارس تعلقت به الأنظار وانجهت إليه العيون ، وهو يسير فى وقار العرب ، وقد تغلغلت فى محياه الجميل آيات الاهتمام والجد ، كان يسير وحوله سبعة من إخوته ، ثم يلتف به بعدذلك بقية كوكبة الفرسان ، وعرف الصحابة القادمين ، كانوا فرسان مزينــة ، وعلى رأسهم أميرهم « النعمان بن مقرن بن عائذ » ، أسلموا لله جميعا فخرجوا للرسول مبايعين ، واستمع السكون لهتافهم ولتكبيرهم ، وقد ساروا لـكى يشاركوا فى بناء صرح الحق الخالد

آمن فرسان مزينة إذن إيماناً حارًّا ، بايعوا كما أرادوا رسول الله صلوات الله عليه . ولم يكن إلا قليل من الوقت حتى دعاهم الجهاد ، فشاركوا وعلى رأسهم النعمان ابن مقرن ، فإذا ما آذن فتح مكة سارت مزينة فى طليعة المجاهدين ، يحمل لواءها النعمان ، ومضى رسول الله من نصر إلى نصر ومزينة فى جنوده .

وتمت كلمة ربك الحسنى على « سيد الخلائق » وخيَّره الله بين الخلود فى الأرض ثم لقاء ربه ، أو لقاء ربه ، فاختار اللقاء ومضى إلى السماء ، وبكاه الخالصون من درن الدنيا ، البعيدون عن أوساخها ، الذين صدقوه حيا بكل شىء بأرواحهم ومالهم ، بكوه وقد ظنوا أنه خالد لايموت ، ولـكن مالبثوا أن سمعوا هذا الصوت الحنون ، صوت ابن أبى قحافة يقرأ : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، فأدركوا أن رسول الله مات حقاً ، فازدادوا بكاء ، وسكبت عيون أولئك الأبطال تسكابا شــديداً وهم يفكرون ، كم من آماد تفصل بينه و بينهم ، وكم من آفاق تبعده عنهم ، وعلا صوت ابن أبى قحافة يخاطبهم قائلا : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لايموت » وسمعها الصحابة جميعها ، فتفكروا جميعا !

حقاً لقد ذهب رسول الله ، ولـكن بقيت دعوة الله ، تلك الدعوة التى حملها الرسول الأعظم من ربه ، فماذا هم فاعلون بها ؟ حينئذ صاح أبو بكر وكأنه يقرأ قلوب الناس : « وما محمدٌ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُـلُ أفإنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبتُمْ عَلَى أعقابِكُمْ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسيجزى اللهُ الشاكرين » .

أوصلهم أبو بكر إذن بقوته النفسية الخارقة إلى أدق مشكلة واجهتها الدعوة الإسلامية ، مشكلة المحافظة عليها والدعوة إليها ، مشكلة الثبات ومشكلة الارتداد ، أعلمهم أولاً بوفاة الرسول ، ثم أوضح لهم وجود الدين بعد وفاة صاحب الدين ، ثم بيَّنَ لهم أن هناك من سينقلب على الدين ومن سيبقى ، فماذا هم فاعلون ؟ وكأن أبا بكر يقرأ فى لوحة القدر : لقد ارتد العرب ، ولم يبق إلا الخلّص الأوفياء ، لم يبق إلا أهل المدينة وأهل مكة ثم القبائل التى تحيط بها وعلى رأسها مزينة ، و بعث أبو بكر بالجيوش إلى المرتدين .

— ٢ —

لواء مزينـــــة

« لواء مزينة » يرفرف مع ألوية المجاهدين المؤمنين ، والنعمان بن مقرن يقودهم من حرب إلى حرب ، حتى كتب الله لدينه النصر وسقط من مزينة عدد كبير من الشهداء ، ولم يبق فى النهاية فى جزيرة العرب مرتد ، ولـكن ألم يتكفل الله بأن ينصر هذا الدين على الدين كله ، إذن فليسر العرب إلى حرب كسرى وقيصر ، وسارت مزينة فى الجيوش الذاهبة إلى بلاد النهرين يحمل لواءهم النعمان بن مقرن . . وكتب النعمان بن مقرن وقبيلته فى تلك الحروب أصدق آيات التضحية حتى التحم المسلمون بالفرس فى القادسية ، وكان للنعمان بن مقرن القدح المعلى فيها ، ثم ولاه سعد بن أبى وقاص فتح جند يسابور ، فسار النعمان بجيش المسلمين واشتبك مع الفرس فى قتال هائل حتى اقتحم حصونها حصناً بعد حصن ، ثم سار إلى السوس وكان الفرس قد تجمعوا فيها فى جيش هائل فقاتلهم النعمان ثم انتصر عليهم واستولى على المدينة ، ثم عاد إلى البصرة ، ولـكن ما لبث فيها إلا قليلا ثم رحل بعدها إلى الكوفة ، وفى الكوفة ولى قيادة الجيوش الزاحفة إلى كسكر ؛ فقادها وهزم الفرس واستولى عليها ، وولاه الخليفة عمر إمارتها وعاف النعمان بن مقرن حياة الإمارة الهادئة وأراد

أن يعود إلى قتال المشركين مجاهداً فى سبيل الله ، فأرسل إلى عمر يطلب منه أن يبعثه فى أى جيش من جيوش المسلمين كجندى بسيط .

— ٣ —

بطل نهاوند

انحاز يزدجرد كسرى الأعاجم إلى « نهاوند » بعد تلك الوقائع الدامية التى انتصر فيها المسلمون . . أولئك العرب المبشرون بدين جديد يسوى فيه الأمر بين الراعى والرعية، ويقيمون مجتمعاً كله طهارة وعدل و إخاء ولم يفهم كسرى ولم يفهم الأعاجم هذا أول الأمر ، ولكنهم أيقنوا أن هذا الدين الجديد سيقضى على دينهم وملكهم ، فكان لابد من أن يقاتلوه حتى النهاية قبل أن يقوض أركان مملكتهم ويهوى بها إلى حضيض الموت . فدعاهم يزدجرد إلى واقعة حاسمة يخضبوا فيها الأرض بدماء العرب الفاتحين حتى يعود ملك كسرى ثانية وتعبد (النار المقدسة) التى أطفأها دين العرب الجديد . . ونفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد وأقبلوا من كل فج من أفجاج الفرس إلى نهاوند حيث اجتمعوا على الفيرزان فى تسعين ألفا ومائة ألف ؛ وكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له إن أهل الكوفة يستأذنونك فى الانسياح وأن يبدأهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم .

وفكر عمر فى الأمر كثيراً وأهمه ، ثم رأى أن يجمع الناس و يستشيرهم ، فقال : « هذا يوم له ما بعده ، وقد هممت أن أسير فيمن قبل لى ومن قدرت عليه فأنزل منزلا وسطاً بين هذين المصرين ثم أستنفرهم وأكون لهم ردءا حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب فإن فتح الله عليهم حبتهم فى بلدانهم .

وتكلم الصحابة مؤيدين كلام عمر ، ولكن علياً لم ير هذا الرأى ، وطلب من الخليفة أن يبقى فى المدينة يرعى شئون أمته وأشار عليه بأن يبعث قائداً ، فقال عمر : « هذا هو الرأى ، كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا على برجل أوليه

ذلك الثغر وليكن عراقيا » . فقالوا : أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك . . فقال : « والله لأولين أمرهم رجلا يكون أول الأسنة إذا لقيها غدا » . فسأله الصحابة : من هو ؟ فأجاب : « النعمان بن مقرن المزنى » . فقالوا : هو لها :

فأرسل إليه عمر يوليه قيادة الجيش قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك — فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو — أما بعد — فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار والسلام عليك ، فسر فى وجهك ذلك حتى تأتى ماه — فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصروا وأكثروا من : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وبعد أن كتب عمر هذا أرسل إلى نائب الكوفة عبد الله بن عبد الله أن يعين جيشاً ويبعثهم إلى نهاوند ، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النعمان بن مقرن ، فسار حذيفة فى جيش كثيف نحو النعمان ابن مقرن ليوافوه بماه ، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق ، وقد وضع فى كل كورة ما يكفيها من المقاتلة وجعل الحرس فى كل نقطة مر بها ، وانتهوا آخر الأمر إلى النعمان بن مقرن فى النقطة التى تواعدوا فيها ، فكمل جيش النعمان بهم ثلاثين ألفاً من المقاتلة وساروا إلى نهاوند لمقاتلة الألوف المؤلفة من الفرس ، ولكن كان فى الأولين صفوة الدنيا وأخيارها — سادات الصحابة ورءوس العرب — عبد الله بن عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وأمثالهما ، وكان فى الآخرين رءوس الكفر وطغمة الشيطان وعبدة النار .

وسار النعمان بالجيش إلى نهاوند ، وكان عمر قد أرسل إلى جند الأهواز أن يشاغلوا بقية جيوش الفرس حتى يقطعوا إمداد فارس عن أهل نهاوند ، أو بمعنى أدق أن يشغلوا الفرس فى ميدان آخر حتى يتمكن النعمان من القضاء على جيش فارس الرئيسى ، وأرسل النعمان طليحة بن خويلد الأسدى وعمر بن معديكرب وعمر بن ثنى ليأتوه بخبر الفرس فخرجوا وساروا ليلة ، فرجع إليه عمر بن ثنى ولم يأت بشىء ، وفى آخر الليل عاد إلى النعمان عمرو بن معد ولم يأت بشىء أيضا — ثم رجع طليحة وأعلم الناس بوجود الفرس فرحل النعمان إليهم — وعبى أصحابه — وهم ثلاثون ألفا كما قلنا — وجعل على المقدمة نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود . . . تلك الأسماء ذات الصحائف الخالدات التى كتب عليها فى تاريخ الحركة الإسلامية أنصع الآيات .

وانتهى النعمان آخر الأمر إلى اسبيذخان والفرس وقوف فى مكان الموقعة وعلى رأسهم أمير الفيرزان .. وتراءى الجيشان وقد علا كلاهما الصمت الرهيب ، ثم كان يهما صوت النعمان يقطع هذا السكون « الله اكبر » . إيه يا أنشودة القوة المنبعثة اللامحدودة التى تخطت المحدود فمنت لها وجه الحياة . . ورددها المسلمون وراء النعمان ؛ فحملتها ذرات الأثير إلى نفوس الأعجام . . . عباد الأرض ، عباد المحدود ، فتزلزلت نفوسهم وتبين لها صغارها بجانب النفوس النورانية الكبار .

وحطت العرب الأثقال ، وتقدم أشراف العرب ليضربوا فسطاط أميرهم . ثم بدأ القتال يوم الأربعاء والخميس فى مواقع هائلة والحرب سجال بين الجيشين حتى تمكن المسلمون من إجلائهم عن مواقعهم ، ولكن الفرس ما لبثوا أن اعتصموا بخنادقهم يوم الجمعة ، فحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله ، والفرس بالخنادق ولا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج .

وخاف المسلمون أن يطول أمر هذا الحصار إذا استمروا أسابيع وهم على هذا الحال فتجمع بعض قادتهم فى ذات يوم ، ورأوا أن حصارهم قد امتد بدون نتيجة ما وأتوا

النعمان وكان يتحدث فى هذا الأمر أيضا فأخبروه فجمع مستشاريه وقال : قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم وأنهم لايخرجون إلينا إلا إذا شاءوا ولايقدر المسلمون على إخراجهم — وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق ، فما الرأى الذى نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ، فتكلم عمر بن ثنى ، وكان أكبر الناس فقال « التحصن عليهم أشد من المطاولة عليهم فدعهم وقاتل من أتاك منهم . » فلم يقبلوا رأيه ، وقالوا : إنما يناطح بنا الجدران وهى أعوان علينا .

قال طليحة : أرى أن تبعث عليهم خيلا لينبشوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً ، فإنا لم نستطر لهم فى طول ما قاتلناهم ، فإذا رأوا ذلك طمعوا فينا ، وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب .

أعجب النعمان بهذا الرأى ، فأمر القعقاع وكان على المجردة بأن يبدأ القتال ، فهجم القعقاع على الخنادق فخرجوا من الخنادق كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لايفروا وقد قرن بعضهم بعضا ، كل سبعة فى قران وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا ؛ فلما خرجوا نكص القعقاع ثم نكص .

ورأى الفرس المسلمين ينهزمون لأول مرة فاغتنموا الفرصة كما ظن طليحة وقالوا : هى هى — أى أنهم أيقنوا بهزيمة المسلمين ، وأخذ القعقاع يتراجع و يتراجع معه المسلمون ، والفرس فى أثرهم حتى انقطعوا بعض الانقطاع عن حصنهم ولم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب ، واقترب الفرس من جيش المسلمين الرئيسى ، وكان النعمان قد أمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتر هو ، وأقبل المشركون على جيش المسلمين يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح ، فشكا الناس إلى النعمان وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه ، فما تنتظر بهم ، ائذن للناس فى قتالهم ؛ فقال رويداً رويداً يا معشر المسلمين ، شهدت مع رسول الله القتال ، إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس . واقتربت ساعة الزوال ، فركب النعمان فرسه وسار فى الناس ووقف على كل راية من رايات المسلمين يذكرهم ويحرضهم

و يمنيهم النصر ، ثم قال مخاطباً الجيش : إنى مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت الثالث فإنى حامل فاحملوا . . وإن قتلت فالأمر بعدى لحذيفة فإن قتل ففلان ، حتى عد سبعة آخرهم للمغيرة .

آذنت ساعة الهجوم ، فقال النعمان : « اللهم أعزز دينك ، وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك وانصر عبادك . . اللهم إنى أسألك أن تقر عينى بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضنى شهيداً » فبكى الناس . . .

ورجع النعمان إلى مكان قيادته ، فكبر ثلاثاً ثم هجم فى مقدمة الجيش ، وأنقضت رايته انقضاض العقاب والمسلمون من ورائه حتى تصافحت السيوف ، وكان المكان يهدر بمن فيه هدير الموج العاتى ، وفرسان المسلمين فى المقدمة يشقون طريقهم فى وسط هذا البحر من الدماء ، والدم يجرى فى كل مكان يزلق الناس بالدواب ، ولاحت بارقة النصر ؛ وضاءة منيرة فى عين النعمان وتوجهت سهام الفرس إليه ، وانقض سهم من تلك السهام على خاصرته فسقط بين الدماء شهيداً فسجاه نعيم بن مقرن وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعيما مكانه ، وطلب منهم المغيرة أن يكتموا خبر موته لئلا يهن المسلمون ، وأدار حذيفة الموقعة حتى انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون ، وكان المسلمون قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وحفروا لهم خندقاً فلما انهزموا وقعوا فى الخندق ، وفى تلك الأودية ، فمات منهم فى الخندق وحده مائة ألف علاوة على قتلى الموقعة نفسها .

وهرب الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن والقعقاع حتى قتله القعقاع على إحدى الجبال . وانتهى أمر فارس بتلك الموقعة وأقام المسلمون على أرض نهاوند الصلاة ، ولكن أين الأمير تساءلوا عن هذا فقال لهم أخوه نعيم : « هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة » و بكى المسلمون أمير نهاوند العظيم ما شاء لهم البكاء ولكن كان هناك رجل ينتظر . .

هو سيد الدنيا . هو عمر بن الخطاب . أسهرته ليالى نهاوند ، فما كان يعرف النوم إلى عينيه سبيلا . يخرج إلى ضواحى المدينة فى هجيرها القاسى ينتظر أخبارها ، حتى أتاه السائب فقال له عمر : ما وراءك ! فقال له فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد الأمير ؛ فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم عرض عليه غنائم نهاوند . غنائم لا تحصى من الجوهر النفيس وما آبه عمر بكل هذا ، بل اعتلى المنبر ونعى إلى أهل الأرض النعمان بن مقرن . أمير نهاوند وشهيدها . . وبكى . . وبكى . . حتى نشج .

وعبد الله بن مسعود فى أسفل المنبر يقول : إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً وإن من بيوت الإيمان بيت بن مقرن .

وأقبل السائب على عمر يقول : « يا أمير المؤمنين ما أصيب رجل بعده يعرف وجهه » فقال عمر : « أولئك المستضعفون من المسلمين ولكنَّ الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر » .

* * *

وفى سهل فسيح ممتد فى نهاوند ، حيث انتشرت أشجار مفرعة الأغصان وشجيرات الورد هنا وهناك نام النعمان بن مقرن نومته الأبدية ، ونام معه جنوده الشهداء . فإذا ما أقبل الربيع واخضرت الأغصان ، وتفتحت الأزهار ذات الأرج ومر النسيم من بينها يردد فى جمال السحر أنشودة طالما رددها ابن مقرن يستمع إليها رواد الروضة الفيحاء أنشدت القوة المنبعثة اللامحدودة التى تخطت المحدود فعنت لها وجه الحياة ، ثم عافت عيشنا وهامت بالخلود باللامحدود الدائم السرمدى . فهتفت به على نجاد نهاوند وسهولها فاستجاب الفداء . . .

الطفيل بن عمرو الدوسى

وابنـــه

عمرو بن الطفيل

« وفى عالم آخر لاينتهى اجتمع الأحبة ، الذين عرفوا الحب تضحية وفداء لله ولرسوله ، لا شهوات وصغائر ، فكانوا فى الأرض الأوفياء المجاهدين . . وكانوا فى الآخرة الشهداء الخالدين » .

أوقدت النيران واشتعلت وانتشرت رائحة الشواء فى مضارب قبيلة « دوس » و بيوتهم ، وكان سيد دوس « الطفيل بن عمرو » يكرم فى هذه الليلة أشراف دوس و يطعم فقيرهم ، و يتنقل بين مضاربهم و بيوتهم مودعاً حتى عاد إلى بيته واجتمع حوله أصفياؤه من أشرافهم وهو فى وسط تلك الحلقة ينشد أشعاره مفاخراً بنسبه وعلوه ومجد قبيلته وفى الصباح المبكّر خرج أشراف الحى يودعونه حيث يذهب إلى سوق مكة فيتاجر لهم فيها ويجتمع بأشراف بيت العرب (بيت إبراهيم) فيتذاكرون أحوال العرب ، و يفضون ما قد حدث بينهم من إحن ومنازعات . . وسار الركب إلى هناك وكان سوق عكاظ قد أشرف ميعاده ، واجتمع شياطين قريش من المشركين يفكرون ما ذا يحدث لو استمع زعيم من زعماء القبائل إلى رسول الله فمنعه وأمره بالقوة والعون ، لابد إذن من دعاية واسعة النطاق يشوهون بها حقيقة الدعوة قبل أن تصل إلى آذان واحد من هؤلاء ، ولكن ماذا يقولون : شاعر ! ! أبداً ، ماهو بشاعر : وليس كلامه الشعر .. كاهن !! أبداً ، ما هو بكاهن ، و إن البدوى ليفرق بين سجع الكلام و بين القرآن .. راهب أبداً ماهو براهب ! فإن هذا لسان عربى مبين ، ولسان هؤلاء لسان أعجمى . . ساحر ! نعم هذه الفكرة التى يستطيعون بواسطتها أن يشوهوا دعوته ، سحر يُفرِّق بين المرء وزوجه ، و بين المرء وعشيرته الأقربين . . وانتظرت قريش وفود الحجيج حتي أقبل الطفيل بن عمرو ، وكان

يمشى وئيداً بطلعته المهيبة وهو يردد أشعاره و يترنم بمجد آبائه ، وأقبل عليه القرشيون يرحبون به . وما استقر به المقام حتى قالوا له « يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بيننا وفرق جماعاتنا وشتت أمرنا و إنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل و بين أبيه و بين الرجل و بين أخيه ، و بين الرجل و بين زوجته ، إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه فلا تكلمه ولا تسمع منه » ومازالوا به يحدثونه و يخوفونه و يقصون له بعض مافرق به ابن عبدالله جماعتهم حتى أجمع ألا يسمع منه ولا يكلمه . يقول : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه . فغدوت إلى المسجد وقد حشوت أذنى كرسفاً (يعنى قطناً) فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله حتى كان يقال لى ذو القطنتين وفرحت قريش يوماً وتيقنوا أن سيد بنى دوس لن يصله من قول رسول الله — ولكن ما الدعوة الله لا تقف فى وجهها حجب أو سجف . يقول الطفيل : فغدوت يوماً إلى المسجد فإذا رسول الله قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول » . وأخذ الطفيل يراقب رسول الله بعينيه النفاذتين حتى انصرف الرسول إلى بيته فتبعه الطفيل حتى إذا دخل بيته استأذن الطفيل عليه ودخل . ثم قال : يا محمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا . للذى قالوا — لا أسمع قولك — ثم إن الله أبى إلا أن يسمعنيه فسمعت قولا حسناً فأعرض على أمرك . فعرض عليه الرسول الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال لا والله ما سمعت قولا قط أحسن من هذا ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ثم قلت :

— يانبى الله ، إنى امرىء مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال : اللهم اجعل له آية . وخرج الطفيل من عند الرسول ، وصاح الصائح فى قريش : قد أسلم سيد دوس

وآمن ، واجتمعت قريش على الصائح هذا ، فأخبرهم الخبر وارتجف القرشيون وأرعدوا ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الطفيل شيئاً وإلا تألبت عليهم دوس جميعها ، وأقبل الطفيل بطلعته المليئة المهيبة فما استطاعوا منه شيئاً .

وأقام الطفيل ما أراد الله له الإقامة ثم خرج إلى قومه يقول : « فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل المصباح ، فقلت اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم فتحول النور فوقع فى رأس سوطى فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق . وولج الطفيل الحى ، ودخل بيته فأتاه أبوه فقال له :

— إليك عنى يا أبتاه فلست مني ولست منك .

— ولِمَ يا بنى ؟ .

— إنى أسلمت واتبعت دين محمد .

— يا بنى دينى دينك . ثم طلب منه أن يعرض عليه هذا الدين حتى إذا كان حقاً آمن به ، فقال له الطفيل : اذهب فاغتسل وطهر ثيابك . فذهب ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتته امرأته فقال لها :

— إليك عنى فلست منك ولست منى

— ولم بأبى أنت .

— فقال فرق بينى و بينك الإسلام ، إنى أسلمت وتابعت دين محمد ، فطلبت منه أن يعرض عليها هذا الدين فقال لها : اذهبى إلى ذى الثرى فتطهرى منه (وهو ماء قريب) فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت . . أسلم آل بيت الطفيل جميعاً ، وكان لابد للطفيل بعد ذلك أن يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وحسب الأمر هينا مستساغا فقام فى قومه بعد مقامه بقليل يدعوهم إلى الله ورسوله . . وانتظر أن يجيبوه فما أجابوا ، بل سخروا منه وعابوه وأصبح هذا البيت الدوسى الرفيع المنار مرمى السخريات والاضطهاد ، فقد زادت دوس تعلقا

بأصنامها ، ومحاربة لدعوة رسول الله ، والطفيل لايهدأ ولا يكل ، يعيب أصنامهم و يسفهونه حتى ضاقوا به وضاق بهم . . فخرج إلى رسول الله يلتمس منه القوة والبأس فلما تقابلا قال له الطفيل : يارسول الله قد غلبتنى دوس فادع عليهم . . وأخذ يقص على الرسول الأعظم ما يلقاه منهم من عنت واضطهاد ، وما يقابلون به دعوة الله من سخرية و نكاية ، فقال الرسول : اللهم اهد دوسا وائت بها ؟ اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

وعاد الطفيل إلى قومه ، وقد ازداد قوة و بأسا يدعوهم فلا يستجيبون ، ولكن الدعوة الحقة الصادرة عن القلب المؤمن الكبير لابد أن تجد آخر الأمر التربة الصالحة ، فتنمو أحسن النمو . . هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . ومضت بدر وأحد والخندق وجاهد فيها من جاهد من أولئك الشهداء الخالدين . . وفات الطفيل بن عمرو هذه الوقائع الثلاث ولكنه كان يقوم بجهاد دقيق عظيم . . جهاد الدعوة فى سبيل الله حتى استجاب له ثمانون بيتا من دوس أقبل بهم إلى المدينة ورسول الله بخيبر ، فسار إليه بهم ، وفى خيبر قال لرسول الله : يارسول الله اجعلنا ميمنتك واجعل شعارنا مبرورا ففعل رسول الله ، وأبلى الدوسيون أحسن البلاء واستشهد منهم من استشهد وأسهم لهم رسول الله . . وأقام الطفيل مع رسول الله فى المدينة حتى فتح مكة فقال الطفيل : يارسول الله ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممه حتى أحرقه فبعثه إليه ، وذهب الطفيل إلى صنم قومه ، وجعل المسلمون يجمعون الحطب ثم أشعل النار فى الصنم وكان من خشب وهو يرتجز :

يا ذا الكفين لست من عبادك   ميلادنا أقدم من ميلادك

أنا حششت النار فى فؤادك

والمسلمون يرتجزون وراءه ، ودوس تنظر صنمها وهو يحترق . . وبان لهم أنه ليس على شىء فأسلموا جميعا . ولكن الطفيل لم يقم بينهم ، فعاد إلى المدينة يقضى فيها حياة بجوار النبى الأعظم ومعه ابنه عمرو وقد شب وترعرع وبلغ مبلغ الرجال . . وفى تلك الأثناء قبض الرسول صلى الله عليه وسلم .

ارتدت العرب عن الإسلام وخرجت على أمر نبيها ، وأعلنت أنها لن تدفع الزكاة ، ورأى خليفة رسول الله صلوات الله عليه أن يجند عليهم الأجناد فبعث بالمسلمين إلى طليحة الأسدى وفى مقدمتهم الطفيل بن عمرو وابنه عمرو . فجاهد الاثنان جهاد الأبطال حتى انتهى المسلمون من طليحة وأخضعوا قبائل نجد كلها ، ثم ساروا إلى اليمامة . . واستعد المسلمون لهذه الحرب العوان ، وأقبل الليل فناموا استعداداً للمعركة فى الصباح ووقفت ربيئة من القوم تحرسهم وغفا الطفيل بن عمرو قليلا ثم وقف فى الصباح يقول لأصحابه : « إنى رأيت رؤيا فاعبروها — إنى رأيت رأسى حلق وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها ، وأرى ابنى عمرا يطلبنى طلبا حثيثا ثم رأيته حبس عنى . . » فقال أصحابه خيرا . . قال : أما أنا فقد أولتها ، أما حلق رأسى فقطعها وأما الطائر فروحى ، وأما المرأة التى أدخلتنى فرجها فالأرض تحفر لى فأغيب فيها ، وأما طلب ابنى لى ثم حبسه عنى فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى » وأقبلت عماية الصباح واشتبك المسلمون مع بنى حنيفة اشتباكا شديدا وتخطى الطفيل وابنه عمرو الصفوف يقاتلان حتى استشهد الطفيل . . أما ابنه فجاهد جهاد الأبطال حتى جرحت يده وقطعت ولم يكف عن القتال .

عاد عمرو إلى المدينة ، وقد فقد أباه ثم استبل وأخذ يؤنب نفسه أن لم يصبه ما أصاب به . فقد كانت حياة أبيه أروع مثل للتضحية والفداء ، فما أسلم حتى وهب لله ولرسوله كل شيء فدعا وجاهد ، وجعل منه هو نفسه رجلا يحارب الآن فى سبيل الله ورسوله ، ثم أعطى أعظم القدوة لدوس فمات شهيدا بين السيوف المسلولة والأسنة اللامعة . قد فاز أبوه ، أما هو فلم يفز . إنه يتذكر يوم أن أقبلوا على الرسول فى خيبر فبعثه صلوات الله عليه إلى قومه دوس يستمدهم واستعرت الحرب يومئذ فى خيبر فقال له عمرو وقد نشب القتال : « يارسول الله تغيبت عنه . . . »

— أما ترضى أن تكون رسول رسول الله . . فرضى عمرو يومئذ وشفيت نفسه

يومها ، يوم أن أراد القتال فما ظفر فيه ، ولـكن من يشفيه الآن ، وقدطلب الشهادة فأخطأها وفاز بها أبوه . ألم يشتق لهذا النعيم الأبدى بجانب الرسول الأعظم و بجانب أبيه . التقوا هناك . . التقى الأحبة أحسن اللقاء ، وعاد الجيش إلى المدينة وما زال عمرو بن الطفيل هائما يطلب الشهادة يريدها فى كل موضع . ومات خليفة رسول الله وانتقلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب .

وكان عمرو عند عمر بن الخطاب — قبل خروجه إلى اليرموك — أتى بطعام فتنحى عنه عمرو ، فقال عمر :

— مالك لعلك تنحيت لمـكان يدك . فقال عمرو

— أجل .

فأجابه عمر بن الخطاب : والله لا أذوقه حتى تسوطه بيدك فوالله ما فى القوم أحد بعضه فى الجنة غيرك .

استمعها عمرو فبعث فى قلبه النور الهادى ، النور الذى طالما استمده من رسول الله يوم كان حيا ، وها هو ذا الآن يستمد بعضه من الفاروق ، ألم يشهد له أن بعضه فى الجنة ، وهو سيد الأرض الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وخرج عمرو فى جيش المسلمين إلى اليرموك ، وهجم جحافل الروم وصمد المسلمون وأخذوا يتساقطون واحدا بعد واحد ، ولـكن تم لهم النصر ، وارتفعت ألوية التوحيد على فلسطين وكان بين الشهداء عمرو بن الطفيل .

وفى عالم آخر لا ينتهى اجتمع الأحبة الذين عرفوا معنى الحياة تضحية وفداء لله ولرسوله .. لا شهوات وصغائر ، فـكانوا فى الأرض الأوفياء المجاهدين .. وكانوا فى الآخرة الشهداء الخالدين ..

أبو حذيفة بن عتبة

« كانت حياته توبة مجاهد وصوت ضمير »

لقد وصل الصوت الإلهى الذى علا فى أرجاء مكة إلى آذان سراتها ، كما وصل إلى آذان فقرائها ومواليها . . ولقد سمع آل عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هذا الصوت قوياً رائعاً يدعو إلى عبادة الواحد الأحد عبادة نقية خالصة من أرجاس الأوثان — فاهتزت تلك القلوب وخفقت .

هذا الشريف القرشى الذى يدعوهم إلى هذا الدين بلغ سنام الشرف وذروة الجاه ولكن كل هذا ما وجهه عن عنايته ، بل إنه ليجاهد فيها ويثبت عليها ثبوت الطود الأشمخ هل هذه قوة الإنسان — هل صبر محمد بن عبد الله كصبر الناس أجمعين . . أبداً . . لقد علا محمد بن عبد الله فوق الإنسانية وفوق البشر — أحاديث نفس تلقى فى نفوس آل عتبة . وكانت ميزة هذا القبيل من قريش دقة الشعور وعذاب الضمير ، كم آلما هذان هذه الأسرة أشد الألم ، وحاكماها أشد المحاكمة ولكن هل يؤمنون لمحمد رسول الله فيضيعون هذا الجاه العريض وهذه المكانة السامية فى قريش — هل يصبئون عن دين أسلافهم ويسفهون أوثانهم . . سؤال تردد فى أعماقهم جميعاً . .

أما عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد فقد توقفا .

أما أبو حذيفة بن عتبة فلم يتردد ولم يتوقف — إن دعوة الحق ظاهرة بينة — فليعتنقها وليفنى فيها وليكن الثمن الذى سيلقاه من قريش أيا كان . . فقد باع نفسه لله ، واستربح من الله الثمن . . وهكذا أرسل الإسلام أشعته البيضاء النقية إلى قلب أبو حذيفة ؛ لقد آمن أبو حذيفة كما آمنت امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

ولقى أبو حذيفة من قريش الرهق ، وحاولوا فتنته عن دينه غير أن الله أيده

بنصره فلا ضعف ولا خور . . بل إنه ليـدأب على نشر الدعوة فى صفوف أهله ، ويرى منهم اللين ويرى فيهم الحـلم والرأى فيطمع فى هدايتهم إلى دين الله ، ويستمع عتبة إلى إبنه يحدثه عن جلال هذا الدين وعظمته . . والرجل يفـكر ويطيل فى التفـكير . . .

وازدادت قريش إمعانا فى إضطهاد الرسول عليه الصلاة والسلام وازداد الرسول إيماناً بدعوته ، وأسلم حمزة بن عبد المطلب وعلم عتبة بن ربيعة ؛ فسار إلى قريش وقد عزم فى نفســه على أمر — لم لا يكلم رسول الله ويحادثه فى دعوته ويطلب منه أن يرجع عنها فى سبيل عروض يعرضها عليه — دخل عتبة إلى الكعبة وجلس فى نادى قريش — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فى المسجد وحده :

— يا معشر قريش ألا أقدم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا .

فقالوا — بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يتمعن فى هذا الوجه — كأنه لم يره من قبل — والذى يحدثه عنه ابنه أبو حذيفة فقال — يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد . قال :

— يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غاب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

والرسول الأعظم يستمع حتى إذا ما انتهى عتبة قال له الرسول صلوات الله عليه : أقد فرغت يا أبا الوليد . قال :

— نعم . قال له الرسول :

— فاستمع منى . قال : افعل .

فتلا الرسول : « بسم الله الرحمن الرحيم حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . »

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال :

— قد سمعت يا أبا الوليد ماسمعت ، فأنت وذاك ؛ فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟ ! قال :

— ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل و بين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه و إن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به قالوا :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

— هذا رأيى فاصنعوا مابدا لكم .

***

ازداد إيلام قريش لرسول الله وصحبه وأخذوا يفتنونهم عن دينهم ، فطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى بلد آمن واختار لهم الحبشة ؛ فهاجر أبو حذيفة هو وامرأته (سهلة) وقد بغض العيش فى جوار المشركين ، وفى الحبشة ولدت له امرأته ولداً سماه محمداً .

وقضوا فى الحبشة ما شاء الله لهم ، حتى علموا أن عمر قد أسلم ، وأن حدة قريش قد هدأت قليلاً ، فعاد منهم من عاد ، وكان من بينهم أبو حذيفة وزوجه ، ولكن ما لبثت قريش أن زاد ثورانها على النبى وصحابته ، فأخذوا يذيقونهم كئوساً من الذل الهائل ، ولم يستطع أبو حذيفة أن يفارق مرة أخرى النور ، وأن يترك الرسول الأعظم — فبقى معه — وهو يحاول ما استطاع أن يهدى أباه ؛ وأبوه يحيا فى عذاب نفسى مستمر . . بل إنه ليشعر شعوراً تاماً أن رسول الله على حق وأن قريشا على باطل ، ولكن الخروج على دين أجداده كان يخيفه و يروعه ،وكان لما ألقاه أبوحذيفة فى نفس أبيه عتبة بن ربيعة أكبر الأثر فى نفسه . وكان عاملا مغالياً فى تفريق كلمة قريش فى غزوة بدر — كما سترى بعد — وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثقيف يعرض دعوته ، فقابلوه أسوأ مقابلة ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ، ورأيا ما لقى تحركت له نفوسهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس ، فقالا له : خذ قطفاً من العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : « كل » .

فلما وضع أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بسم الله . . ثم أكل .

فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله صلوات الله عليه : ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس وما دينك ؟.

— نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

— من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى .

— وما يدريك مايونس بن متى ؟ .

— ذاك أخى كان نبياً ، وأنا نبىّ .

فأكبّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّل رأسه وقدميه ، وأحد ابنى ربيعة يقول لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عداس قالا له : مالك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه . قال :

— يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هـذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ . . !

ثم تركهما وعاد ابنا ربيعة يفكران . . .

* * *

اهتدى اليثربيون إلى الله وإلى رسوله وأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فهاجروا إليها ، وأسرع أبو حذيفة بن عتبة إلى المدينة مهاجراً إلى الله ورسوله وعاش فى هذا المجتمع الإسلامى حتى نادى منادى الجهاد ، فخرج فى مقدمة الصفوف فى بدر.

أقبلت قريش تحارب الله ورسوله ، فلما رآها النبى صلى الله عليه وسلم قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاول تكذيب رسولك ، اللهم فنصرك

الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة . ثم رأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال : « إن لم يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا » وبعثت قريش لعمر بن وهب أن يحرز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب ثم عاد يقول : « قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعداءهم فما خير العيش بعد ذلك فردوا رأيكم » .

فلما سمع حكيم بن حزام هذا وكان يعلم أن عتبة بن ربيعة إنما خرج مستكرها فذهب إليه وقال :

— يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لاتزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر .!

— وما ذاك ياحكيم ؟.

— ترجع الناس وتحمل أمر حليفك عمرو .

— قد فعلت أنت على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلة (أى أبا جهل بن هشام) فإنى لا اخشى أن يشجر أمر الناس غيره

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : « يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

وفى تلك اللحظة انطلق حكيم بن حزام إلى أبى جهل فقال له : « ياأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا » . فقال : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه . كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى ، فقال هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك ، فقام عامر بن الحضرمى وصرخ . . واعمراه . . واعمراه . . فحميت الحرب وأفسد أبو جهل على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة . فلما بلغ عتبة قول أبى جهل انتفخ والله سحره . قال : « سيعلم مصفر الإست من انتفخ سحره » .

وفى تلك اللحظة قتل حمزة بن عبد المطلب . . الأسود عبد الأسود المخزومى ، فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد من الصف ودعا إلى المبارزة .

إنه ليعلم أنه على باطل وأن كثيرين من قريش ليعلمون أنهم على باطل ، وأن مع محمد الحق المبين ، فما لهم يحاورون وينافقون . . وإنه ليعلم أن ابنه فيهم ، وقد يقابله فى ميدان النزال — أحدهم يدافع عن إيمانه بالحقيقة السماوية — وهو يدافع عن أوثان لا تغنى من الله شيئاً قد يقابل ابنه فيقتل أحدهما الآخر — فما خير العيش بعد ذلك — لقد كانت قريش مضعضعة الكيان حين رأت تضعضع نفسية شريفها عتبة بن ربيعة .

وهذه كتيبة رسول الله قوية مؤمنة يعلم كل فرد أنه لا يدافع عن نفسه إنما عن دينه فكان الفرد لا يقابل بقوة ذاته بل بقوة المجموعة كلها — فازداد عددهم المعنوى عن عدد أعدائهم ألوف المرات .

أما غايتهم فكانت واحدة .. أما قائدهم فكان واحدا . . أما سبيلهم فكان إلى الله ورسوله نصراً واستشهادا .

لقد عرفت الغاية ، وعرف القائد ، وعرفت الوسيلة . . . فلو اجتمعت الأرض عليهم جميعاً فى ذلك اليوم ما غلبتهم — إنهم الآن آية السماء على الأرض ، إنهم حجة الإسلام على أبنائه المارقين الآن تلزمهم أن النصر لمن آمن وفنى فى محمد ودينه ؛ ولقد رأى القرشيون هذا فما فهموا أول الأمر . . حين دارت عليهم الدوائر عرفوا أن محمداً على الحق ولكن ما آمن منهم كثير .

رأى أبو حذيفة أباه وعمه وأخاه يخرجون للقتال ، وإنه ليعلم أنه خرج مستكرهاً لقتال المسلمين ، ولكن ماله يتقدم ، هذا الرجل الحكيم المتزن ، ليموت بأيدى المسلمين كافراً فيخلد فى النار . حزن أبو حذيفة ولكن طرأ عليه هذا الطارىء القوى الرائع ؛ فليخرج هو إلى أبيه فيقتله ليكون الأمر عبرة للأجيال . وامتشق أبو حذيفة سيفه وخرج إلى المبارزة ، ولكن منعه الرسول ، فأطاع وما كان أصحاب رسول الله إلا أكثر الجنود طاعة بل فناء فى قائدهم العظيم .

ووقف أبو حذيفة ينظر إلى المبارزة وفيها قتل أبوه وأخوه وعمه — ولكن ما هى النفس الإنسانية ؟ ! أليست هى مجموعة من العواطف والانفعالات والمشاعر ، ولقد تحطم كل هذا فى نفس أبى حذيفة ، وأثار مزيجاً من الحزن والألم والغيظ فى نفسه . . .

والتحمت قريش مع المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فليقتله ومن لقى أبا البحترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله — ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرها » . ولقد سمع أبو حذيفة هذا — وأبوه ، ألم يخرج هو الآخر مستكرها — ونسى أن أباه هو الذى بدأ النزاع وأثاره وصاح : « أتقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وتترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف » . وإن رسول الله ليسمع هذا فينادى عمر ويقول له : « يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف » ؟. فقال عمر : « يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق » . فأشفق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عمر عن قتله وقال : « لقد رأى مصرع أبيه بعينيه » .

* * *

أبو حذيفة بن عتبة فى ميدان القتال يضرب يميناً وشمالا ويحطم قريش تحطيما .

ماذا فعلت — أبا حذيفة — فوقفت تعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحاده ، وتعصى أمره ، هذا الأمر الآتى من السماء ، أإنك الآن كواحد من هؤلاء المنافقين الذين يؤذون رسول الله فى المدينة أو كـكافر من أولئك الـكفرة المجرمين . . . من أبوك هذا ومن عمك ومن أخوك بجانب تلك الشعلة الأبدية التى اعتنقتها والتى يحملها رسول الله من ربه — ما أمر رسول الله إلا وحياً أتى من السماء . . والعباس ابن عبد المطلب إنه لمسلم فى أعماقه وإنه لأكبر عامل مثبط بين المشركين يبعث بأخبارهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمل على خذلان الـكفر فى موطن الـكفر فما لك تعصى أمر رسول الله فيه وتريد أن تلجمه بالسيف — ما خير العيش بعد هذا . .

أيتها النفس اللوامة التى تحاكين وتعاقبين رفقاً بى قليلا فلقد أظلمت أمام عينى الحياة وما أرى فيها الآن إلا سرابا خداعا — وتـكشفت الحياة أمام ناظرى — فإذا هى غرور دونه أى غرور . . فإنه عمل صالح وحياة كلها طهر وإيمان أضعتها اليوم وفى لحظة — فنـكثت على أعقابك . .

وانتهت بدر . . وقد أبلى فيها أبو حذيفة أحسن البلاء وعرض نفسه للموت أكثر من مرة . . ووقف بجانب الرسول خاشعاً متصدع القلب .

ثم بنى المسلمون لقتلى المشركين قليبا وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقوا فيـه — وفى تلك اللحظة أخذ عتبة بن عتبة فسحب إلى القليب — فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير

— يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شىء .

— لا والله يا رسول الله ، ما شـكـكت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولـكننى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلا ، فـكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الـكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك . . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وقال له خيرا .

* * *

أليس فى هذا العفو التام عن أبى حذيفة ؟ ! أو لم يكن قتاله فى بدر شفيعاً له عند نفسه اللوامة ؟ أبداً . . أبدا . . إلى انتهاء الحياة ! ! وها هو ذا يقول : « ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة » .

ياله من قلب إنسانى علا فوق القلوب فما عاد ينظر إلى الحياة إلا لخطيئة يجب التكفير عنها . . إن أيامه لتمضى وهو يحيا فى دنيا النادمين .

والحرب تستعر بين رسول الله و بين المشركين وأبو حذيفة يطلب الشهادة فى كل موضع ، ولكنه لا يظفر بها . . فى أحد وفى حنين وقف كالأسد يدافع عن دين الله بل وفى جميع المغازى .

وذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو راض عن أبى حذيفة كل الرضاء غير أن أبا حذيفة ما زال خائفاً من كلمته أيضاً . ودعا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار إلى الجهاد وقتال المرتدين من بنى حنيفة — فأسرع الصفوة المختارة من المجاهدين والأنصار وفى مقدمتهم أبو حذيفة .

وقاد خالد بن الوليد الجيش إلى بنى حنيفة ، وانقض مسيلمة الكذاب على المسلمين بجيوش كثيفة من المشركين ، وكانت الموقعة صفحات ثلاثة : أما الصفحة الأولى فقد هزم المسلمون فيها وهنا خرج خالد من معسكره وصاح : « واممداه » فتذكر الأنصار والمهاجرون عهودهم ومواثيقهم وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين وتقدم ، وهنا بدأت الصفحة الثانية وفيها ثبت المسلمون واستشهد زيد ، فحمل أبو حذيفة لواء المسلمين وصاح فيهم : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » . وهجم المسلمون ، واستشهد أبو حذيفة ، وهنا بدأت الصفحة الثالثة فقد غلب المسلمون بنى حنيفة وقتلوا مسيلمة الكذاب وتمت كلمة ربك الحسنى .

وفى ساحة القتال . . نام أبو حذيفة بن عتبة نومته الأبدية ومر به المسلمون يلتمسون من حياته ومن موته أبلغ العظات . . . فهنيئاً لك أبا حذيفة حياة المجاهدين الأتقياء . . وهنيئاً لك أبا حذيفة جزاء الشهداء الأبرياء .

فارس الخزرج . . .

« إيه — يا منبع القوة — يا فارس الخزرج ، ما زالت الأجيال تردد لنا ولمن بعدنا ... إنه ارتوى من نبع الخلود — حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضه . »

ألا تنظر إلى الضوء . . الضوء السارى من وراء الآفاق مبشراً بعوالم جديدة خافية عن أعين الضلال والهائمين فى هذا الوادى السحيق . . وادى الحياة .

ألا تستمع إلى القلب الخفاق . . الذى يردد على نايه العظيم ألحان الخلود .

ألا تستمع إلى الصوت المنبعث من حراء . . يحدث عما كان وما سيكون وما هو كائن .

ألا إنه الصوت الإلهى نادى به المبعوث من مبدع الأكوان فاخترق الحجب ، ونفذ إلى الأعماق سارثم سار حتى أودع الصدور الحافظة من أهل يثرب .. ألاتستمع إليه أيها الفارس الذى رهبه الناس وانحنى لسطوته جبابرة الصحراء ، ألا تستمع إليه داويا مؤذنا بثبات الحقيقة . . إيه أيها الفارس الرهيب أما فكرت من قبل فى غاية هذا الكون ومنتهى تلك المصائر — أما تكشف لك سر الأسرار — سر الحياة والموت .. لم نحيا وإلى أين نمضى . . لقد أتت الحلول أخيراً تقدم لك فياضة فأقبل على النبع لترتوى .. فقد طال الظمأ والهوى إلى الارتواء .. وسرعان ما أقبل الفارس الرهيب — فارس الخزرج أبو دجانة فارتوى من نبع الخلود .. ارتوى حتى فاض ، فإذا الدنيا تخضع لسيفه البتار ، وتكتب فى صحائفها الباقيات خلودا لاينتهى .

* * *

آمن « أبو دجانة » سماك بن خرشة إيمان الأقوياء ، وأدرك زعيم الأنبياء هذا فجعله فى الصدارة من الصحابة — ولكن أبا دجانة ما أخذه الغرور ولاعظم به العجب . إنه يسير فى إطراقة المؤمنين .. إطراقة لله فحسب ، وخشوع يملأ ذرات روحه

فيجعلها صافية وادعة ، وهكذا كان فارس الخزرج الرهيب الذى دوى اسمه فى بوادى العرب وصحاريها .

* * *

ارتفع اللواء . . اللواء الذى لا ينحنى أبد الآبدين . . اللواء الخالد السرمدى ، لواء الحق المبين . . كتب عليه بأحرف من نور ونار . . هذا لواء سيد المرسلين . ارتفع اللواء ولا ينحنى ، والتحمت الصفوف وفى وسطها أبو دجانة وعلى رأسه عصابة حمراء . . عصابة الموت .

كان الشعلة المحرقة التى لا تحترق ، كان الصاعقة المتحركة التى لا تقف فيها الحركة ، كان الحركة المستمرة التى لا يوقفها سكون . ما لأبناء الأرض وعبادها من قريش يفرون من أمامه .. إنهم تناسوا الحكمة الخالدة يوم لقوه .

إنه ارتوى من نبع الخلود .. حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لغيضه .

تلك صحيفة « فارس الخزرج » فى جبل بدر ...

* * *

ارتفع اللواء . . لواء رسول الله . . ورسول الله بين الصفوف وفى يده سيفه ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ . فقام إليه فرسان المسلمين فمنعهم وهنا سألوه : وما حقه يا رسول الله ؟ فأجاب :

— أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى. فأحجم القوم . وهنا قام أبو دجانة وقال :

— أنا آخذه يارسول الله بحقه . فأعطاه إياه .

وهنا أخرج عصابة له حمراء .. فتعصب بها ، فقالت الأنصار « أخرج أبو دجانة عصابة الموت » . وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها . وتزاحف الجيشان وتصالحت السيوف .

* * *

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول

استمعها المسلمون ، وأبو دجانة يترنم بها وسط السيف ، والـكافرون يفرون من حوله كأنهم الحمر المستنفرة الفارة ، وصرع أبطال القرشيين تحت قدمه حتى وصل إلى كافر من الـكفرة لحمل عليه فولول فإذا هى امرأة ، فلم يقتلها ، إنه أكرم سيف رسول الله صلوات الله عليه أن يضرب به امرأة .

* * *

ارتفع اللواء .. لواء رسول الله . وقد فر من حوله المسلمون ولم يثبت إلا من عصمه الله ، وفى مقدمتهم أبو دجانة . فإذا ما أقبلت كتائب الـكفر تصدى لها هو وفارس عبد مناف — على بن أبى طالب — حتى قضيا على الـكثير منها ، ثم انهمر القرشيون من كل جانب على رسول الله يقذفونه بالنبال . وهنا أقبل أبو دجانة على رسول الله وجعل نفسه ترساً له والنبال تقع فى ظهره وهو منحنى لا يشعر بالآلام والأوصاب . وهنا بايع الرسول على الموت .. ووهب له نفسه وروحه .. صائحا بتلك الـكلمة التى كتبتها لهم الأجيال :

« نفسى دون نفسك وعينى دون عينك ، والسلام عليك غير مودع . »

وكم فزع القرشيون لتلك الروح .. روح أصحاب محمد صلوات الله عليه ، تلك الروح التى تبدو فى الملمات غير جزعة ، غير متعلقة بالوجود الأرضى ، وهو منتهى أملهم هم وغايتهم .. هؤلاء الـكافرين بالحق . وتناسوا حكمة باقية أبد الزمان — أن صحابة الرسول وفى مقدمتهم أبو دجانة — أنهم ارتووا من نبع الخلود .. حتى فاض فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضهم .

وتلك صحيفة « فارس الخزرج » فى جبل أحد .

* * *

أى صحائف كتبها فارس الخزرج بعد ذلك — إنها أرفعها وأخلدها .. فى جميع مشاهد الرسول لم يتخلف عن واحدة .. بل كان فيها الفارس المجلى . ثم كان الأمر لأبى بكر بعد .. وارتدت العرب وعلى رأسهم بنو حنيفة ، وسار إليهم المسلمون

ومادت الأرض هناك بالقتلى والأشلاء ، وأبو دجانة يصول صولة الأسد ، متذكراً عهوده الخوالى ، عهوده مع الكائن النورانى الأعظم ، الذي بعث فأعطى ثم مضى ، ألا من وصال ، ألا من قرب حول الحوض الموعود .

وأبلى أحسن البلاء .. وصناديد بنى حنيفة يهاجمونه كتلا متراصة فينكل بهم تنكيلا — وهو فى حلمه السرمدى .

وانجلى المشركون أخيراً إلى الحديقة وتحصنوا بها ، فألقى المسلمون أبطالا منهم إليها ، وكان أولهم أبا دجانة ، وحارب أبو دجانة حتى تمكن المسلمون من الدخول ، وفى تلك الأثناء كسرت قدمه ولكنه استمر فى القتال وقد أصابته الجراح حتى قتل بعد أن رأى نصر المسلمين .

وتلك كانت صحيفته الأخيرة .

إيه .. يامنبع القوة ، يا فارس الخزرج ، مازالت الأجيال تردد لنا ولمن بعدنا .. إنه ارتوى من نبع الخلود حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضه .

فتنـــة الأشراف . .

« تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر ، لا بقلوبهم ولكن بألسنتهم فأظهروا الكفر وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان ... وفى الرياض الخالدات .. سيحيون .. لا لغو هناك ولا تأثيم بل تزفهم الملائكة فى أعالى السماء .. سلام عليكم .. سلام عليكم وطوبى لكم يوم الميعاد »

الشواظ المحرقة تنزل من لهيب هذه الشمس على بيوت مكة فتردها سُقف بيوتهم ، ويجلس القرشيون فى ظلال ناعمين ، أما عابرو الطريق فى تلك اللحظات القاسيات من وجه النار فكانوا يسرعون إلى حيث يبتغون مأوى من هذا الهجير القاسى ، وخلت طرقات مكة من الناس ولم يعد هناك ثمة رجل أو امرأة — وهدأت الحركة . . وساد السكون ، سكون أشبه بسكون الليل ولكن يمتاز عنه بقساوة جوه واختناقه . وفى وسط هذا السكون كان يسمع لهث محزن . . كانت الشمس تطل من سقف بيتين أو ثلاث على رجال قيدت أقدامهم بالحديد وتعرضت أجسامهم لضوء الشمس القاتل . . كان يسمع دقات قلوبهم وهى ترتفع وتنخفض وأصواتهم لاهثة متعبة ، ولكن لا تأوه ولا أنين ، افترسهم الألم ، وأضناهم الحزن والعذاب ، فإذا ما أقبل عليهم أشهدهم وخز الضمير .. كان هؤلاء المفتونون من أصحاب محمد رسول الله .. وكان من بينهم هشام بن العاص وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام بن المغيرة وغيرهم . . أولئك الأولون من صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر لا بقلوبهم ولكن بألسنتهم ، وأظهروا الكفر وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان ، وكأن قريشا أدركت ثباتهم على دينهم فوهبتهم الحياة فقط وسلبتهم الحرية والحركة .

* * *

هناك فى تلك البلاد المجدبة .. كانت قوة الظلام وقوة النار تتنازعان وتضطرم نيران العداوة بينهما . . وكان من عباد الظلام العاص بن وائل السهمى غلظ قلبه واستحوذ الشر عليه ، وكان فى قلبه من الخبث والدهاء ما جعله من دهماء العرب الأفذاذ ودهاتهم الماكرين . . وكم تفنن العاص فى إيذاء المسلمين وتشهد مكة يوماً موقفاً له مع خباب بن الأرت صاحب رسول الله — فقد كان خباب قينا بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم . قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكونن وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظاً فى ذلك .. ونزل الوحى على رسول الله : « أفرأيْتَ الَّذِى كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لَأُوتيَنَّ مَالاً وَوَلداً ، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا ، كلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيأْتِينَا فَرْداً » .

وزاد العاص لجاً فى الطغيان والإثم وعداوة الرسول ، ولكن الرسول حين يراه يقول : « ابنا العاص مؤمنان . . هشام وعمرو » ، أما هشام وكان أصغر من أخيه عمرو فقد آمن ، وتحمل هشام من عنت أبيه وأخيه عمرو الشىء الكثير — فما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة حتى هاجر هشام إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثم عاد إلى مكة حين بلغه بدء هجرة الصحابة إلى يثرب واتفق مع اثنين من الصحابة هما عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة على الهجرة يقول عمر : أقعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص التناضب من إضاءة بنى غفار فوق سرب وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه ، فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب وحبس عنا هشام وفتن فافتتن » .

أدرك العاص إذن أن ابنه سيفر بدينه إلى المدينة فأرصد له الأرصاد حتى إذا تم

بالهجرة فى الصباح قبض عليه وسجنه ، وخضع هشام لهذه الألوان المهلكة من العذاب فنطق بكلمة الكفر .

* * *

وهاجر عمر وعياش حتى وصلا المدينة ونزلا فى بنى عمرو بن عوف وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فكلماه وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك . سمع عياش هذا فذكر أمه فرق لها — ولحظ عمر العظيم هذا — فقال : « يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت » . ولكن عياشاً الرقيق القلب قال : أبر قسم أمى ولى هناك مال تأخذه ، ويعود عمر العظيم فيقول : إنك لتعلم أنى من أكثر قريش مالا فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عياش إلا أن يخرج معهما فلما أبى إلا ذلك قال له عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فأحزم ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فأخذها عياش وسار مع أبى جهل وأخيه حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ، قال عياش : بلى . ثم أناخ وأناخا ، ليتحول عليهما فلما استووا على الأرض ، هجما عليه وأوثقاه ثم دخلا به مكة نهاراً ومضوا به فى الأوثاق ثم صاحا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا ؛ ثم أخذوا يذيقونه العذاب ، حتى رجع ظاهراً إلى الكفر .

وأقبل سلمة بن هشام بن المغيرة من أرض الحبشة وأراد اللحاق بالرسول ، فحبسه أبو جهل وأجاعه وأعطشه فافتتن .

ونادى النفير فى قريش إلى الحرب . . . إلى قتال محمد فى بدر حيث تستأصل شأفته وينتهى أمره ، ويشعر القرشيون أن سلمة وعياشاً وهشاماً لن يكونوا إلا عوناً لمحمد فى حربه معهم ، وأن من الخير أن يبقوا فى قيودهم فى مكة وإلا تلمسوا الفرص للانضمام إلى الرسول ، وبقوا فى مكة حقاً ، ولكن فتية آخرين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وعادوا إلى الكفر ففروا من المدينة حين علموا بخروج محمد إلى قريش — وقالوا عن محمد وصحبه — لقد غر هؤلاء دينهم ، وهناك فى جبل بدر قتلوا جميعاً . وأطل الوحى على رسول الله ينادى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . » .

أما عياش وسلمة وهشام ، فكانوا فى قيودهم فى مكة يحتملون من الألم ما لا يحتمله البشر ، وأتاهم ضيف جديد . .

* * *

خرج الوليد بن الوليد بن المغيرة كافراً يوم بدر ، وقاتل مع القرشيين قتالا شديداً وهو يعلم أن قومه على ضلال مبين ، ولكن هى نزوة العصبية عند العربى ، وانهزم القرشيون وأسر الوليد . . أسره عبد الله بن جحش . . وخرج خالد بن الوليد وأخوه هشام لافتدائه فطلب عبد الله بن جحش أربعة آلاف فأبى خالد ، ولكن هشاماً قبل وقال لخالد : إنه ليس بابن أمك والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت ، وطلب الرسول لافتدائه شكة أبيه الوليد ، وكانت الشكة درعاً فضفاضة وسيفاً وبيضة ، فأقيم ذلك مائة دينار فأتيا به إلى المسلمين ، فلما قبض المسلمون ذلك خرج أخوة الوليد به حتى بلغا ذا الحليفة فأفلت منهما وعاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه — ثم عاد إلى إخوته فقال له خالد — هل كان هذا قبل أن تفتدى وتخرج مأثرة أبينا من أيدينا ، فاتبعن محمدا إن كان هذا رأيك ، فأجابه الوليد : ما كنت لأسلم حتى أفتدى بمثل ما افتدى به قومى ، ولا تقول قريش إنما اتبعت محمداً فراراً

من الفدى . ثم سارا به إلى مكة وهو آمن لهما فما وصلا إلى هناك حتى أوثقاه وحبساه.
وهكذا نزل الضيف الجديد على المفتتنين وقد افتتن الوليد كما افتتنوا .

* * *

حديث يسر به المسلمون إلى أنفسهم عن هؤلاء المفتونين ، و يحدث المفتونون به أنفسهم . . . حديث نفس قاس يتلخص فى تلك الكلمة التى قالها عمر العظيم : « ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم » . هذا ما يردده المسلمون وفى مقدمتهم عمر ، و يقوله المحبوسون أنفسهم حتى أقبل الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة . فأنزل الله عليه : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ثم لا تنصرون » .

فكتبها عمر بيده فى صحيفة و بعث بها إلى هشام بن العاص .

وتسلم هشام الصحيفة . . . وكأن أهله قد سمحوا له ببعض الحرية ، حين طال السجن والقيد عليه ، فخرج إلى ذوي طوى يسير فيها و يجلس ، يصعد الجبل و يهبط وهو ينظر إلى الرقعة ثم ينظر إلى السماء و يحاول تفهمها و يقول : « أللهم فهمنيها » . فألقى الله فى قلبه أنها نزلت فيه فجلس على ناقته ومضى يطوى البيد إلى رسول الله . وقابل الحبيب أحبته الخالدين .

* * *

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى دبر كل صلاة : « أللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » و يسمعها الصحابة منه كل صلاة ؛ وفى فجر يوم صاف رفع النبى الأعظم رأسه من الركعة من صلاة الفجر ، ثم نادى « اللهم أنج الوليد بن الوليد

وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين بمكة . . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف » .

وتقبل الله دعوة الرسول إذ أفلت الوليد من الوثاق ، وقدم المدينة ، وفرح المسلمون بمقدمه ، وسأله النبي الأعظم عن عياش وسلمة فقال له : تركتهما في ضيق وشدة وهما في وثاق ، رجل أحدهما مع رجل صاحبه ، وأقام الوليد في المدينة ولكن شوق رسول الله يلح عليه دائماً أن يرى صاحبيه عياشاً وسلمة ، فيقول يوماً : من لي بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ، ويسمعها الوليد فيقول : أنا لك يا رسول الله بهما . فقال له الرسول : « انطلق حتى تنزل بمكة على القين فإنه قد أسلم فتغيب عنده واطلب الوصول إلى عياش وسلمة فاخبرهما أنك رسول رسول الله وأن تأمرهما أن ينطلقا حتى يخرجا » . فخرج الوليد إلى مكة مستخفياً فلقي امرأة تحمل لهما طعاماً فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت أريد هذين المحبوسين . فتتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسلق الجدار ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيدهما ثم ضربها بسيفه فقطعها ، فسمى سيفه لذلك « ذو المروة » ثم خرجا معه فحملهما على بعيره وانطلق هو يسوق البعير وساروا في الطريق الذي سار فيه الرسول حين هاجر مخافة من الطلب وتتبعهما خالد بن الوليد وفريق من قريش ، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بهم . وفي أثناء الطريق عثر الوليد فدميت إصبعه ولكنه لم يأبه بل نظر إليها وقال :

ما أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

ووصلوا إلى المدينة سالمين .

* * *

هذا الوليد بن الوليد . . . السيد القرشي يدخل إلى المدينة فائزاً فرحاً بفوزه ، فقد حقق للرسول ما أراد ، وكم كان يقر عينه في تلك اللحظة حين يرى الرسول الأعظم يستقبل عياشاً وسلمة ، وكان يشعر بتلك السعادة العظمى التي يحس بها

المجاهدون حين يرون ثمرة جهادهم الخالد ، ولـكن الجسم كان قد أضنى وتحمل من وعث الطريق وشدته وعسفه ماينوء به هذا الجسم الحديدى فما لبث أن انهار وأحس الوليد بفؤاده يتقطع شيئاً فشيئاً حتى توفى بين أيدى الصحابة راضـياً . مودعاً لهم .

وعلمت أم سـلمة بوفاة ابن عمها فقالت : « غريب توفى فى بلاد غربة » ، واستأذنت الرسول صلوات الله عليه فى البكاء على الوليد فأذن لها . . فقالت :

يا عـين فابكى للوليـــد بن الوليـد بن المغـيرة
كان الوليـــد بن الوليـــد أبا الوليد فتى العشـيرة

فسمعها الرسول صلوات الله عليه فقال : « لا تقولى هكذا يا أم سلمة ولـكن قولى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

* * *

وعلمت ضباعة بنت عامر بفرار ولدها وانضمامه إلى رسول الله فقالت :

اللهم رب الـكعبة المسلمة أظهر على كل عدو سلمة
له يدان فى الأمور المبهمة كف بهايعطى وكف منعمة

وبقى سلمة مع الرسول صلى الله عليه وسلم يشاهد معه المواقع ولا يتخلف عن شىء منها . . . ثم خرج مع المسلمين إلى الشام حيث بعث أبو بكر الجيوش بجهاد الروم ، فقتل سلمة بمرج الصفر شهيداً فى المحرم سنة أربعة عشر فى أول خلافة عمر ابن الخطاب . .

ومضى مع الخالدين . . .

* * *

أما عياش بن أبى ربيعة فبقى مع النبى صلوات الله عليه يجاهد أيضاً حتى توفى الرسول ، فخرج إلى الشام مجاهداً ، ثم رجع إلى مكة فأقام بها حتى مات .

* * *

وعاش هشام بن العاص يحارب فى سبيل الله مُسْتَلاً سيفه فى كل معركة ، ثم هاجر عمرو بن العاص ، وعاش الأخوان عيشة الأبطال الميامين ينأيان عن كل فتنة

ويقبلان فى كل جهاد .. حتى توفى الرسول ، وخرج عمرو بن العاص قائداً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان معه أخوه هشام ؛ واشتبك المسلمون مع الروم فى أجنادين ورأى هشام من المسلمين بعض النكوص عن عدوهم ، فألقى المغفر عن وجهه وأخذ يتقدم فى نحر العدو وهو يقول : « يامعشر المسلمين إن هؤلاء القلقان لاصبر لهم على السيف فاصنعوا كما أصنع » . . فجعل يدخل وسطهم فيقتل النفر منهم وهو ينادى : « يامعشر المسلمين إلىّ إلىّ أنا هشام بن العاص ، أمِنَ الجنَّة تفرون ! ! ؟ » . . . وهجم المسلمون كالأبطال حتى انهزمت الروم وانتهوا إلى ثلمة لايعبرها مسلم إلا قتل ، فهجم هشام فقتل ووقع على الثلمة فسدها ، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو :

— « أيها الناس ! إن الله قد استشهده ورفع روحه إليه ، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل » ؛ ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطعوه إرباً . فلما انتهت الهزيمة على الروم ورجع المسلمون إلى معسكرهم كرَّ إليه عمرو ، فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمله فى نطع فواراه . ولما بلغ عمر بن الخطاب خبر قتله قال : « رحمه الله فنعم العون للإسلام » .

وبينما حلقة من قريش جلوس فى دبر الكعبة إذ مرّ عمرو بن العاص يطوف ، فقال القوم : « هشام بن العاص أفضل فى نفوسكم أم أخوه عمرو بن العاص ؟ » ، وشعر داهية العرب بأنهم يتكلمون عنه ، فلما قضى طوافه أتى إلى الحلقة وقال : « ما قلتم حين رأيتمونى فقد علمت أنكم قلتم شيئا ؟ » . فقال القوم : « ذكرناك وأخاك هشاماً فقلنا هشام أفضل أو عمرو » . فقال : « على الخبير سقطتم ، سأحدثكم عن ذلك ، إنى شهدت أنا وهشام اليرموك ، فبات وبت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة فلما أصبحنا رزقها وحرمتها ، فهل فى ذلك مايبين لكم فضله علىّ » .

* * *

وفى الرياض الخالدات .. سيحيون .. لالغو هناك ولا تأثيم ؛ بل تزفهم الملائكة فى أعالى السماء .. سلام عليكم .. سلام عليكم ، وطوبى لكم يوم الميعاد .

عبد الله بن عبد الله بن أبى . . .

[صورة من صور الفناء فى الحق لم تعهدها الدنيا ، ومثل من أرفع الأمثال يذكر هؤلاء الذين أذلهم الحرص على الدنيا ومتاعها الزائل — وتعلقوا بالأهل والولدان فكانوا أدنأ الجبناء . .]

كانت القوافل تسير من جزيرة العرب إلى الشمال حيث أسواق الشام المزدهرة بأنواع من حاجيات الحياة وكمالياتها لا يعرفها العرب فى بلدهم الجدب ولكنهم يتطلبونها ويحملون منها ما يستطيعون . وإذ ما سارت القوافل إلى الشمال مرت دائماً بيثرب . . المدينة السحرية الغريبة التى يعيش فيها حيان من العرب مع تلك الأمة اليهودية الغريبة الأطوار ، وإذا ما أناخت القوافل فى يثرب ذهب سادتها يتلمسون طيب المقام عند سيد العرب عبد الله بن أبى بن سلول بن مالك بن الحرث الخزرجى فى بيته الرفيع المنار . فإذا ما خيم الليل اجتمعت الحلقات فى بيت عبد الله بن أبى ، واجتمع التجار من كل مكان يتناقلون أخبار العرب ويتسامعون أخبار الشام ، وفى وسط هؤلاء كان يجلس أبو عامر الراهب الخزرجى ابن خالة عبد الله بن أبى يبشر بنبى جديد أطل زمانه ويعلن إيمانه به قبل مبعثه ، وأنه ناصره ومعينه . ويسمع عبد الله بن أبى هذا ويسمع غيره . ثم يأخذون فى أطراف من الأحاديث شتى ، فإذا ما انتصف الليل أسرعوا إلى بيوتهم أو إلى مضاجعهم التى أعدها صاحب الدار للقاصدين نحوه من أصحاب القبائل .

وفى وسط هذه البيئة المترفة المفرطة فى الترف والغنى ؛ وفى ظلال تلك المجتمعات الغنية بأخبارها درج سن الطفولة والشباب الحباب بن عبد الله بن أبى بن سلول . وكان عبد الله ينظر إلى ابنه الحباب وهو يكتمل رجولة وقوة ويفيض حياة وازدهارا . . وقد وضع فيه آمال الحياة كلها ولم يعد يأمل فى شىء سوى أن يجمع لهذا الابن الشرف والثروة والجاه والسلطان .

وجاء يوم « بعاث » يوم العواصف العاتية عواصف الموت والدمار التى حلت بالأوس والخزرج ، فاقتتلوا أشد القتال حتى كاد أن يفنى بعضهم بعضا . . وانهزمت الخزرج آخر الأمر ، ولكن عقلاء الفريقين أوقفوا القتال بقاء على بعضهم من الزوال وخوفاً من تسلط اليهود ثعالب المدينة .

ولكم كره عبد الله بن أبى هذه الحرب ولكم أراد أن يحول بينها ولكن هكذا كانت الأقدار ، وكان لا بد له أن يشترك فيها ويخوض غمارها . وقد خاضها وصلى بنارها وخاضها ابنه عبد الله واشترك فى جميع وقائعها .

وأدرك الفريقان سوء ما فعلا ولكن بعد فوات الفرصة بعد أن ضعف الأوس والخزرج جميعا وعلا اليهود مقاماً وجاها وثروة وفكر أشراف العرب فى أمرهم . ورأوا أن حرباً أخرى بينهم إذا ما ثارت لأى سبب كان فيها القضاء عليهم — إذن فلا بد من الاندماج فى وحدة تامة وقوة واحدة تقف فى وجه اليهود . أجمعوا على هذا الأمر بعد تفكير عميق وقر رأيهم على أن يتوجوا عبد الله بن أبى ابن سلول ملكا عليهم ، وأخذوا يجمعون الذهب والخرز ليصنعوا له تاجاً كما تصنع الأكاسرة .

وهنا أشرق قبس من نور . . نور أخاذ بدأت العرب تتبينه فى يثرب ولم يشعر به ابن أبى ، ولكن هذا القبس انتقل من بيت إلى بيت ، حتى كانت العقبة الثانية الكبرى ، وقد ذهب اليثربيون إلى مكة ليعاهدوا مشرق النور على الوفاء .

أما عبد الله بن أبى فقد ذهب إلى مكة مع قومه ، وقد أيقن أنه حين عودته سيتوج ملكا على يثرب ، وكم كان يحلم وهو فى رحلته بملك عريض سيقيمه وينشر سلطانه على كل جزيرة العرب ، ثم يتركه لابنه الحباب من بعده .

ونام ابن أبى فى مكة ولم يشعر بتلك البيعة الكبرى ، ولم يشعر بأن قومه يبايعون رسول الله صلوات الله عليه على الموت فى سبيله ، وعلمت قريش بأمر البيعة فأتت إلى عبد الله بن أبى فسألته عنها فأنكر ولج فى الإنكار وأظهر الدهشة . . أشد الدهشة لكلام القرشيين .

وعادت قافلة يثرب ، ولما نأت قليلا عن مكة علم عبدالله حقيقة الأمر ، فارتاح له وحاول أن يرد قومه عنه فلم يأبهوا له ، بل قابلوه — وهو ملكهم المرجو — أشد المقابلة وأغلظوا له فى القول ، وأدرك عبد الله أن عظمته قد انتهت وأن ملكه قد زال وامتلأ هذا القلب الضعيف بالحقد والسخائم ، وعاد إلى المدينة وانتشر الإسلام فى كل بيت من بيوتها ، حتى ابنه الحباب قد آمن وأسلم ، فلما رأى عبد الله هذا أسلم هو أيضا ، ولكن كان إسلامه رياء ونفاقا ، وأصبح بيته موئلا للمنافقين والمشركين يجتمعون لديه ويضعون خططهم ومؤامراتهم فى رحابه .

ونأى ابنه عنه ، كره الحباب بن عبد الله أن يغمض أبوه عينيه عن الحقيقة الأزلية التى أتى بها رسول الله ، وأن يحاربها ابتغاء الدنيا ومتاعها الفانى ، وحقداً على هذا الملك الذى ضاع منه . . فتنكب صحبته وهجر داره .

وهاجر رسول الله إلى المدينة ، فازداد بغض عبد الله بن أبىّ له . أما الحباب فقد ازداد لله ورسوله حُبا وإخلاصاً ، وقد سماه الرسول عبد الله ، وعظمت مؤامرات ابن أبى لرسول الله والرسول يصبر عليها صبراً عجيباً ، ولكن أى مأساة كانت تشتعل فى صدر الابن ، هل يبقى على هذا الأب أم يقضى عليه فينهى هذا الشر الذى يصيب المسلمين منه .

وخرج المسلمون إلى بدر ، وهناك أبلى عبد الله بن عبد الله أحسن البلاء ، وعرض نفسه للموت فى كل موضع لعله يكتب صحيفة من صحائف الاستشهاد تحجب صحيفة أبيه المدنسة بالأوزار ، ولكن كتب الله له فيها الحياة .

وخرج المسلمون إلى أُحُد ، وما وصلوا إليها حتى خذل عبد الله بن أبى الرسول وعاد بثلث الناس ، وفى قريش كان ابن خالته أبا عامر الفاسق الذى آمن بالرسول قبل مبعثه ، فلما بُعِثَ كفر به ، فكأن آل أبىّ اجتمعوا على حرب رسول الله ماعدا عبد الله بن عبد الله ، فقد شهر سيفه وانقض على أبى عامر ومن معهم من الخزرج قومه فأوسعهم ضرباً وتقتيلا ، واشتد القتال وعبد الله بن عبد الله صامد فيه

حتى أصيب فى أنفه ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب . وعاد المسلمون بعد أحُد وعاد معهم عبـد الله بن عبد الله ، وما زالت المأساة بعد تشتعل فى صدر الرجل .

وأدرك سيد الأنبياء صلوات الله عليه تلك المأساة الثائرة المشتعلة فى نفس عبد الله فقرّبه منه ، وأمَّرَه على المدينة فى إحدى غزواته .

* * *

وخرج الرسول إلى غزو بنى المصطلق ، وانتصر عليهم ، وازدحم المسلمون على ماء بعد الموقعة ، فاختلف أجير لعمر يقود فرساً مع أحد الأنصار ، فتماسكا ، فصاح الأنصارى : يا معشر الأنصار ، وصاح الأجير : يامعشر المهاجرين . . .

استمع عبد الله بن أبى إلى هذا ، وكان قد خرج إلى الموقعة طمعاً فى الغنيمة ، فانتهز تلك الفرصة ليوقع بين المسلمين ، وليشفى ما فى نفسه من حقد وضغينة فقال : « أقد فعلوها قد كاثرونا فى بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجنّ الأعز منها الأذل . . . » ثم قال لقومه : « هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم ببلادكم ، وقاسمتموهم بأموالـكم ، ووالله لئن أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم »

وسمع زيد بن أرقم هذا فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر حاضراً فقال : يارسول الله ، مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال الرسول الأعظم : كيف إذ يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولـكن أذن بالرحيل فارتحل صلى الله عليه وسلم فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع بالناس ماهم فيه ، فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه وقال يا رسول الله لقد رحلت فى ساعة لم تـكن تروح فيها فقال : أو ما بلغك ما قال عبد الله بن أبى ؟ .

— ماذا قال ؟

— زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال أسـيد : والله تخرجه إن شئت ، فإنك العزيز وهو الذليل ثم سكت وقال : يا رسول الله ارفق به

فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا . وعلم عبد الله بن أبى أن أمره قد افتضح فذهب إلى الرسول وأقسم أنه ما قال وما تكلم ، وذهب جمع من الصحابة للرسول وقالوا له : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام — أى زيد بن أرقم — قد أوهم . ولكن رسول الله أصر على الرحيل . ووصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وقد نسى الناس من فرط التعب حديث ابن أبى ، ولكن عبد الله بن أبى أقام معهم مصراً على الإنكار .

وأطل الوحى من أعلى السماء على رسول الله فنزلت سورة المنافقين وفيها إثبات لقول زيد بن أرقم : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بأذن زيد وقال : هذا الذى أوفى الله بأذنه .

واستمع المسلمون إلى تلك الآيات واستمعها عبد الله فعلم أن رسول الله آمر بقتل أبيه فسار إليه وقال :

« يا رسول الله هو الذليل وأنت العزيز ، يا رسول الله إن أذنت لى فى قتله قتلته ، فإن كنت فاعلا فمرنى به أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحد أبر بوالده منى ، ولكنى أخشى أن تأمر به رجلا مسلماً فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى على الأرض حياً ، حتى أقتله . فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار » .

ولكن رسول الله قال له : « بل نحن صحبته ونترفق به ما صحبنا ، ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته » .

ولم تسمع الأجيال صحائف من روعة وجلال وتضحية ورحمة أكثر من تلك الصحائف . واستمرت الثورة النفسية فى أعماق عبد الله بن عبد الله حتى مات أبوه ،

ودعا رسول الله إلى الصلاة عليه فصلى عليه ولكن أنزل الله « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » .

مات عبد الله بن أبي وانتهى أمره . . ولكن ما زالت فى نفس ابنه عبد الله ثورة مشتعلة أوارة على أبيه ، ألم يكتب أبوه فى صحائف الله رأس المنافقين وتلك الأجيال المتعاقبة من المسلمين ألم تلعنه في كل حين ، وازدادت الثورة قوة فكيف السبيل إلى إطفائها خرج إلى كل الغزوات وأنفق معظم ماله لله ، ولكنها ما زالت مستمرة وتعاقبت السنون .

وارتفع اللواء . . اللواء الخفاق فى اليمامة حيث تقاتل جيوش الخليفة أبو بكر جيوش بنى حنيفة ، وفر المسلمون أولا ، ثم جمعوا صفوفهم والتحموا مرة أخرى . ولواء رسول الله يخفق فوق الرءوس ، وفى مقدمة الصفوف عبد الله بن عبد الله واخترقت النبال الجسد العظيم فسقط وانتصر المسلمون آخر الأمر ، ووقفوا أمام الشهيد الكريم متأملين . . لقد هدأت الثورة المشتعلة — الخاتمة — هدأت حين شربت من كئوس النعيم ومرحت فى رياض الخالدين .

عكرمة بن أبى جهل

« لقد كان فى حياة عكرمة آية للناس — آية الضمير المعذب المرهف ، فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن ، أدرك بروحه الحساس مقدار خطيئاته الماضيات ، فأراد أن يعفى على آثارها ما استطاع ، فصلى وصام وأنفق وجاهد ، ثم بعث نهراً من دمه ودم قومه فانهمر كالأتى : فبدد تلك الصخور القاسيات ، صخور الخطايا » .

. . . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم أمام مكة . . ووقف القرشيون منتظرين سفيرهم أبا سفيان . . حتى أقبل ثم صاح : يامعشر قريش — هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

وفزع القرشيون أشد الفزع ، وأسرع الكثيرون منهم إلى بيوتهم ، ولكن عكرمة بن أبى جهل — وقد نذر نفسه لحرب رسول الله وخاض كل موقعة ضده ، أبى أن يضع السلاح بل هاهو ذا يجمع أصحابه لقتال رسول الله . وهاهو ذا صاحبه حماس بن خالد الدئلى يقول لامرأته : لآتينك بخادم من أصحاب محمد .

وفى الخندمة وقف عكرمة بن أبى جهل بن هشام سيد بنى مخزوم وفارسها على رأس أشد القرشيين بغضاً لرسول الله — وتحرك الجيش الإسلامى العظيم وهجم خالد بن الوليد على عكرمة وأصحابه فسحقهم سحقاً ، وفر عكرمة ومن معه من المشركين ، وعاد حماس بن خالد إلى امرأته ، فقابلته مستهزئة قائلة : أين الخادم . . فقال :

فأنت لو شهدتنا بالخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة لم تنطق فى اللوم أدنى كلمة
إذ ضربتنا السيوف المثلمة لهم زئير خلفنا وغمغمة

ودخل المسلمون وعلى رأسهم سيد الرسل إلى مكة عفا عن أهلها ، ما عدا جماعة قليلة على رأسها عكرمة بن أبى جهل .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد فر من مكة . . هذا سيد بن مخزوم يطوى صحارى العرب ميمما نحو اليمن طريداً فاراً من وجه المسلمين ، مفكراً فيما فعل فى تلك الأعوام الطوال من معاداة لرسول الله وحرب لله ، لا يدفعه إلى هذا إلا خوفه على هذا المجد المؤثل أن يضيع من يده ، وهذا الصرح المشمخر من مال ومتاع وسؤدد أن يزول عنه ، وقد ذهب كل هذا وانتصر أصحاب محمد رسول الله ، وأصبح لهم الأمر كما وعدهم نبيهم وكانت العاقبة لله — أما هو فقد انتهى به الأمر إلى مغادرة وطنه شريداً يرهب الموت على يد المسلمين فى كل لحظة فغذ السير حتى وصل آخر الأمر إلى اليمن ، ثم ركب فى سفينة تحمله إلى الحبشة ، وما سارت السفينة بهم قليلا حتى أصابتها ريح عاصف وأشرفت على الغرق ، فقال أصحابها للركب : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً هاهنا .

فقال عكرمة : إن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره اللهم لك على عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفواً كبيراً .

وقد أنقذه الله حقاً فعادت السفينة إلى البر ثانية سالمة ، ولكن كيف العودة إلى رسول الله . . وقدم عكرمة إلى البحر ثانية — ولكن هذه زوجه قد أقبلت من مكة إليه .

أسلمت أم حكيم زوج عكرمة وابنة عمه الحارث بن هشام يوم الفتح ثم استأمنت لزوجها من رسول الله فأمنها ، فخرجت مع غلام لها رومى للحاق به — فراودها العبد

عن نفسها فأطعمته ولم تمنه حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه حتى أدركت عكرمة ، فسألها عن أمر قريش ، فقالت : جئتك من عند أوصل الناس وأكرمهم وقد آمنك . فوافق عكرمة ورجع ، وفى أثناء الطريق أخبرته خبر الرومى فقتله قبل أن يسلم .

وكان موقفاً من أدق المواقف مقابلة عكرمة لرسول الله ، ولكن النبى الأعظم قام إلى عدوه اللدود وعانقه وقال : مرحباً بالراكب المهاجر .

إن عكرمة ليقص بعد ذلك أن عداوته المستعرة زالت فى ذلك اليوم حين رأى النبي المنتصر الظافر القادر . . يعفو ويصفح ثم يزيد فى مقام الذين حاربوه مقاماً ولا يتخذهم عبيداً أو موضع السخرية والنكاية .

وبهذا انتهت صحيفة ابن أبى جهل السوداء لتبدأ صحيفة من أروع الصفحات .

ما لقريش تنتقل من الكفر إلى النفاق ، ويظهر أهلها المشاركة الوجدانية القلبية لكل من عادى الرسول — رسول الله — ويتهامسون فى خاص أحاديثهم بهذا ، ما لهم يهزأون بعدبالإسلام ، وقد كان فى يد نبيالإسلام قطعرقابهم ، بل كان أيسر هذا عليه ، تشفياً بحق وانتقاماً لحوادث جسام لطخوا بها أيديهم . . ولكنه عفا . . هذا الحليم الرفيق ، لقد نأى عكرمة عن قريش كما نأى سهيل بن عمرو عنها ، وعن كثير عن البقية المنافقة من مشيخة قريش الضالة . وهذا عكرمة يأتى رسول الله فيقول : لا أدع مالا أنفقت عليك إلا أنفقت فى سبيل الله مثله ، وتأخذ التوبة كل ذرة من روح هذا الرجل وكل مكان من جسمه . . فلا يرى إلا وعينيه لا تفارق المصحف ولا يلمع إلا ساجداً لله راكعاً . . ولكن ما لهؤلاء المسلمين يقولون حين يلمحونه : هذا ابن عدو الله أبى جهل .. وأسرع عكرمة إلى رسول الله فشكا له — فجمعهم الرسول وقال لهم : لا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى . ونهاهم أن يقولوا : عكرمة بن أبى جهل ، ثم استعمله الرسول على هوازن عام حج .

* * *

وفى بيت رسول الله فى المدينة جلست أم سلمة تحدث عن رسول الله ، فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت لأبى جهل عذقا فى الجنة ، فلما أسلم عكرمة قال : يا أم سلمة هذا هو .

* * *

ونادى المنادى فى المدينة : استشهد عكرمة واستشهد ابنه عمر وعمه الحارث .

وصمت الناس ..

لقد كان فى حياة عكرمة آية للناس ، آية الضمير المعذب المرهف ، فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن .. أدرك بروحه الحساس مقدار خطيئاته الماضيات . . فأراد أن يعفى على آثارها ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاهد ، ثم بعث نهراً من دمه ودم قومه فانهمر كالأتى .. مبدداً تلك الصخور القاسيات .. صخور الخطايا .

وهكذا نام ابن أبى جهل مطمئنا آخر الأمر .. نام مع الصديقين والشهداء ..

ذهب الرسول إلى الملأ الأعلى . . وكادت قريش أن ترتد . . لولا رجال أخلصوا لله إسلامهم كعكرمة وسهيل . . وارتدت العرب ، ووجه إليها الجيوش وقاد عكرمة الجيش الذاهب إلى بنى حنيفة وقاتل هناك عكرمة ماشاء الله له أن يقاتل.

ثم بعثه أبو بكر بجيشه إلى عمان ، حيث خاض مواقع هائلة مع أهلها حتى خضع المرتدون — ثم اقتحم مهرة وكتب الله له فيها النصر .

وانتهت حروب الردة فخرج عكرمة إلى الشام مجاهداً وكان له فى كثير من مواقعها اليد الطولى — وقبل أن يخرج إلى الشام خرج أبو بكر ليستعرض الجيوش فى الجرف على بعد ميلين من المدينة ، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة فانتهى إليه — فإذا هو خباء عكرمة ، فسلم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة ، فقال : لا حاجة لى فيها معى ألف دينار .

فدعا له أبو بكر بخير .

وفى اليرموك .. وقف عكرمة يقول : قاتات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل موطن وأفر منكم اليوم . . ثم نادى : « من يبايعنى على الموت » ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور وابنه عمر بن عكرمة فى أر بعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد ؛ وكان عكرمة يواجهه الأسنة والرماح حتى جرحت صدره ووجهه فقيل له : اتق الله وارفق بنفسك . . فقال : كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبدا .

وتصالحت السيوف للمرة الأخيرة . . . لقد مات عكرمة ومن معه — ماعدا ضرار بن الأزور . .

وحمل عكرمة وابنه عمر إلى خالد ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ، ورأس عمر على ساقيه . . وقطر فى حلوقهما الماء . . وهما ابنا عمه . . ثم قال :

زعم ابن حنتمة (أى عمر) أنا لا نستشهد وكيف؟ .. ألم يدفع بنو مخزوم هذا الثمن العظيم دم عكرمة وابنه وعمه .

* * *

فهرست

صفحة